الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة:
٣٠ ق في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٤ | ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧ — ١٥ يونية سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية

أهي مجنونة

أقصوصة مصرية

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

عاد « أديب » من نزهته القصيرة مع حبيبته ، وفي مسمعيه منها ضحكتها الفضية التي أذكرته الماء المنحدر في لين ورفق ، وأشعة الشمس تتكسر على ما يتموّج منه ، وكان يخيّل إليه وهو يمشي على مهل في الجزيرة أن هذه الضحكة المرحة يستطيع النسيم الواني أن يحملها ويذيعها كما يحمل أرج الأزاهر ، أو كما يذيع تغريد القمري . بل خيل إليه أن هذه ضحكة يسع المصور الحاذق أن يرسمها ويثبتها بالألوان . وتساءل وهو يفكر في هذا : لم لا يكون في الطوق أن يصور المرء الأصوات ؟ ؟ ألا يمكن أن نعبر عن مثل هذه الضحكة بخط أزرق متموج يجري فيه — كالعرق — خيط ذهبي دقيق ؟ وابتسم وهو يسأل نفسه : ماذا ترى يسمي أهل الولع بالتعريف وضبط الحدود مثل هذه الصورة؟ أتراهم يسمونه تصويراً رمزياً أم يبتدعون له اسماً جديداً ويقولون مثلاً إنه التصوير « التعبيري » أي التعبير بالألوان وما إليها عما يقع في النفس من الشيء مادة كان أو صوتاً ؟

وكان « أديب » كاسمه أديباً ، فله من اسمه نصيب ، وكانت الفتاة التي يحبها في مثل سنه ، وكان أهلهما لا يعلمان من أمرهما شيئا ، فهما يلتقيان سراً ، ويؤثران التمشي في الحدائق العامة ، وقد يتلاثمان إذا أمنا فضول العيون ، وإلا فحسبهما أن تتلامس يداهما وهما سائران أو قاعدان . وكان يحس — دون أن يعلم — أن الطهر في الدنيا قليل ،

وأن كبح النفس فى الحياة ليس بسبيل كل حى . ويخطر له أحياناً أنه ليس من اللازم أو الواجب أن يمضى المرء على التوق من الرياح الهوجاء التى تعصف بها الحياة . وكان يقول لنفسه إن هذا قد لا تكون له قيمة فى حياة الأكثرين ، ولكن رجل الأدب أو الفن ... ؟ آه ... هذا شأنه غير شأن الناس !! ويسأل نفسه : ولكن لماذا يختلف الحال ويتفاوت الأمر ، وهذا إنسان وذاك إنسان ؟ ويجيب نفسه فيقول — وهو يؤمن بما يقول ولا يخالجه شك فى صحته — إن الحقيقة عذراء ، فى جوهرها ، وإن الجمال طهر ، ومن الواجب أن يؤمن الانسان بصورة الكمال التى ترفعها العذرية والطهر والعصمة ، وقد يخفق المرء ، ولكن الاخفاق إنما تكون علته هذا الطين الضعيف الذى لا فكاك للنفس منه . وليس الأديب أو الفنان بحر كغيره من الخلق . وهل هو قدر رُزق موهبة الأدب أو الفن إلا ليتاقى معانى من الجمال والحق فى الحياة ؟

وكان على موعد مع حبيبته فى صباح اليوم التالى ، وكانت الساعة فى ذلك الوقت — وهو يروح ويجئ فى أرض الجزيرة — التاسعة مساء ، فماذا عسى أن يصنع بهذا الليل الطويل إلى صباح الغد ؟ النوم لا سبيل إليه ، والقراءة أو الكتابة ... أوه مستحيل هذا ... الهواتف كثيرة ، وكيف يطيب أو يغتفر النوم لمن تصافح مسمعيه كل هذه الهواتف من الجمال والحب ؟ وكيف يجوز أن يتناول ما بنفسه ويجمعه ويحزمه ويلقيه فى ركن ، ويريح رأسه على وسادة ويغمض عينيه ويروح ينط ؟؟ هذا الكنز الذى عثر عليه فى نفسه ، هذا الينبوع الفياض الذى تفجر ... متى ينعم به ويسعد إذا كان ينام أو يقرأ أو يكتب ؟؟

وجلس على مقعد من الخشب ، وجعل ظهره إلى الشارع ووجهه إلى النيل ، ولم يعن بأن ينظر يمنة أو يسرة ، وكان على مقعد قريب منه سيدة تراعيه ولا تحول عينها عنه ، وهو ذاهل عنها وعن سواها كأنما خلت الدنيا إلا من حبيبته ، ولكن ذهوله لم يمنع أن ترتسم فى ذهنه بغير جهد محسوس منه صورة وجه يبدو باهتاً ممتقع اللون تحت مصباح ، وعينين منحرفتين قليلاً ، وشفتين حمراوين ، وشعر وحف أسود ، وجبين عال أشبه بجبين الرجل منه بجبين المرأة على الرغم من نعومته وانماعه . وكانت هذه الصورة التى انتقشت وحدها ربما خايلته بألوانها ومعانيها فيتعجب ، ويقطب ، ويغمض عينيه كأنما يرجو بذلك أن يجعلها أوضح . وكان وجه العجب أن هذه الصورة التى تلح عليه ليس فيها مشابه من حبيبته . فمن أين جاءت ؟

وسمع — أو توهم أنه سمع — ما يشبه الزفرة الخافتة ، فردته هذا إلى الدنيا التى خرج منها بأحلامه وتلفت فاذا به يرى أصل الصورة المرتسمة فى ذهنه فصار عجبه أشد ، فما كان يدرى أنه رأى أحداً ، أو نظر إلى أحد ، وفرك جبينه ، فسمعها تقول :

« لقد بقيت أكثر مما كنت أريد »

فرفع رأسه وحول وجهه إليها ، فلم ير أحداً غيره يمكن أن يكون المعنى بكلامها فقال « نعم ؟ »

قالت : « كنت أنوى أن أبقى برهة قصيرة ، ولكنى رأيتك فاستغربت حالك ، وأظنك لم تشعر

أنى أحدق فيك منذ نصف ساعة »

فلم يدر بأى كلام يجيب ، وطال تردده ، فقالت :

« من الواضح جداً أنك فى دنيا غير هذه الدنيا »

فوجد لسانه وقال بلهجة أرق من عبارته : « هل يعنيك هذا ؟ »

قالت : « نعم ، إنى أرى أنك تشعر بشىء من الوحدة ، وكذلك أنا ، لماذا لا تجلس إلى جانبى ؟ أنا أجلس إلى جانبك »

وانتقلت إلى مقعده ، فقال بلا لف : لماذا تفعلين هذا ؟ إنى لا أعرفك

فابتسمت ابتسامة التسامح وقالت : « تمر بى أحيان لا أطيق أن أكون فيها وحدى »

فسألها بجفوة : « هل من عادتك أن تكلمى الأغراب ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « الانسان فى بعض الأحيان يقدم على أشياء قد يستغربها هو فيما بعد »

فزاد شكه فيها واسترابته بها وقال بصرامة وحشية :

« يا سيدتى إنى فقير وليس معى فلوس »

فضحكت .. قهقهت .. ثم تناولت يده وجذبته إليها فمال عليها ثم اعتدل وسألها :

« يا سيدتى ، ولكن من أنت ؟ وماذا أنت ؟ هذا هو المهم »

فقالت : « لا بأس ... أقول لك من أنا ، وما ذا أنا ... مات الرجل الذى كنت أعيش معه ، وقد كنت أعايشه لأنى كنت أحبه ... كنت ! فاهم ؟ ... وكانت له زوجة وبنون ، ولكن هذه حكاية أخرى ... المهم أنه مات ، وأنه عوضنى عما خسرت بفرارى من أهلى وبنقمتهم علىّ ... وترك لى من المال ما يكفينى مع الاعتدال . وفى وسعى أن أتزوج الآن ، ولكنى لا أريد ، لأن زواجى يحتاج إلى الاحتيال والتدبير ، ولست أطيقهما ؛ والطباع التى حملتنى على الفرار من أهلى وأنا مفتوحة العين على ما أستقبل من حياتى ، هى الطباع التى تحملنى الآن على إيثار الحرية فى حدود الكفاية من المال ، والتنزه عن الاحتيال والتدبير لأفوز بزوج ... وماحاجتى إليه ؟ لقد أحببت رجلا لم يكن حبه لى كفاء حبى له ، ولكنه كان كيساً حكيما فترفق بى ، وأولانى العطف الصادق بدلاً من الحب الذى عجز عنه ، ولكن قلبى مات مع ذلك ... كما مات هو ... غريب ... غريب أن يحيا الانسان بقلب ميت ! ! قبر متحرك ولكنه متنكر ! ! ومن يدرى؟ لعلك تظننى ... تحقق أنك تظننى من هؤلاء النسوة اللواتى يبعن أجسامهن ... ولك العذر ... وهبنى كنت المرأة التى توهمتها كذلك ... أواه ! لا أستطيع أن أقول ... ولكن لماذا لا أقول ؟ ماذا أخشى ؟ ماذا تعنينى ظنونك وأنت شاب لاتدرى شيئاً ولا تعرف من الحياة إلا اسمها ... ؟ ما عمرك ؟ عشرون ... ؟ أكثر أو أقل قليلاً ؟ وما عملك فى الحياة ؟ بماذا تشتغل ؟ قل لى أولاً »

فتردد وحار ، ثم استطاع بجهد أن يخبرها أنه يشتغل بالأدب فى أوقات فراغه ، فإن له عملاً فى شركة ...

فقالت : « أديب ؟ يعنى تنظم الشعر ؟ تؤلف روايات ؟ هه ؟ ؟ وتطبع ذلك وتبيعه ... تبيع ثمار عقلك ... والمرأة التى توهمتها تبيع جسمها ... هذا

ما ظننت ... فليكن ... فهل ترى أيها الأديب الأريب الحاذق فرقاً بين البيعين؟ هات سيجارة إذا كنت تدخن »

فأعرب لها عن أسفه لأنه لم يعتد التدخين ، فهزت رأسها هزة المتسامح ، وقالت وهي تبتسم : « كنت أتوقع ذلك »

وكأنما غير طلبها للسيجارة واعتذاره ، وتعقيبها عليه مجرى الحديث ، فأطرق اديب وعاد إلى مثل صمته وتحديقه فى الماء ، قبل أن تنتقل إلى مقعده ، ولبثت هى لحظة صابرة عليه لا تحاول أن تخرجه من سكونه ، أو ترده مما بدا لها كالغيبوبة ، ثم قالت فجأة — واصلة ما انقطع من حديثها — :

« لو شئت لغامرت ، ولوسعنى أن أبسط لنفسى العذر إذا لم يعذرني الناس . وعلى أنه ما قيمة أن يعذر الناس أو لا يعذرون . ومتى كان الناس يعذرون باخلاص ؟ أو يتقون أن يغتابوا الانسان على كل حرصه على السلوك القويم — أعني التقليدى ؟ — ولكنى لا أغامر ، لا لأني لا أشتهى أن أفوز من دنياى بما يفوز به أمثالى ، بل لأنى اقتنعت بأن الأمر لا يستحق عناء ، ولا يساوى ما يبذل فى سبيله . ثم لأن آخرة المطاف ماذا ؟ آخرته أوله ... رحلة طويلة ولكن فى دائرة ... فنانى أنفسنا بعد المشقة والجهد حيث كنا حين بدأنا ... ولا قناعة ولا رضى ولا ميراث إلا الحسرة ... أليس كذلك ؟ »

فقال — ولم يسعه إلا أن يقول — : « يظهر أنك جربت كثيراً »

قالت : « نعم . جربت ، إن اللذة ليست شفاء من القلق الروحى والاضطراب النفسى ... قد تكون مخدراً ... ولكنها لا تشفى ... »

فهز رأسه مبتسماً للمرة الأولى ، فقد وافقت هذه العبارة هواه وأحلام شبابه ، وسألها : « عسى أن تكونى راضية عن حياتك ؟ »

فابتسمت له — فى عينيه — وقالت : « أين الحياة التى ترى صاحبها الذى يحياها راضياً عنها ؟ »

فشعر بأن به حاجة إلى أن يحميها — لا يدري لماذا ؟ — وقال : « ولكن لك عزاء على الأقل هو أن حياتك مطابقة لآرائك — أعني أنك تحيين على مقتضى اقتناعك — على قدر ما فهمت من كلامك — ولا شك أن قدرتك على ذلك من بواعث رضاك عن نفسك ؟ »

فلم تلتفت إلى هذا وقالت بلهجة فيها من الليل سجوه : « ستكبر يا صاحبى يوماً ما ، وستتاح لك فرصة تقص فيها على صديق لك ، ما سمعت ورأيت منى فى هذه الليلة ، وقد تبالغ وتتفلسف ، وتنحل نفسك ما لم تقله ، وتقول لى ما لم تسمع منى ... نعم ... من يدري ؟ »

واعتدلت فجأة فى مقعدها ، ولوحت بيدها ، والتفتت إليه ، وأثارته النظر وقالت :

« انت عاشق . أراهن أنها فتاة ظامئة ولكنها جميلة كالزهرة التى بدأت تتفتح ، وعسى أن يكون شعرها فاحما لماعا ، وعينها ... ماذا يا ترى ؟ .. لا يهم .. »

فالتفت إليها مستغربا ولكنه لم يقل شيئا

ومضت فى كلامها فقالت : « إنى أسن منك وأخبر بالحياة والناس ، وقد أحببتُ ، ولكنى لم ألتزم الأسلوب التقليدى ، ولم أجر على الخطة المرسومة فى العرف الموروث ، فليس ما أرى من عينيك أنك تفيضه على حبك ... على الحب عامة ... من السحر والشعر يغريب علىّ ، ولكنك ستشب عن هذا

الطوق ياصاحبي، وستلتفت بقلبك وبعقلك لايعينك وحدها ، إلى الأيام التى كنت فيها تحب الحب ... أيام كانت ألسنة الهواتف تصب فى أذنيك أنشودة سحرية... قد تحلم بمثلها فيابعد في منامك ، ولكنك لن تسمعها مرة أخرى فى يقظتك ، كما تسمعها الآن وأنت تحلم مفتوح العينين ... لست منجمة ، ولكنك لن تتزوج حبيبتك ... ولن يكون هذا أقوى حب لك فى حياتك ... كلا ... فى مثل سنك الغضة ؟؟ أوه . لا »

فابتسم ساخرا وقال متهكما : « هل تستطيعين أن تقرأى لى كفى ؟؟ »

قالت « لا تسخر ... سيجرفك حب المرأة التى تراك صالحا أن تكون وقودا للنار المتسعرة فى جوانحها. وأحسبك ستظل حياتك كلها وقودا لنساء من هذا القبيل .. نساء لسن من طرازك، ولا أنت من طرازهن، ولا بينك وبينهن أى تجاذب روحى ... أراك لا تصدق ... (وهزت كتفيها) آه هذه الثقة ... إيمان الشباب بنفسه ... لو كان أقل أو أضعف لكان نظره أبعد ، وأصدق أيضا ... »

ونهضت ومدت له راحة رخصة ، فوقف وتناول كفها فقالت « أستودعك الله »

قال: « ألا نلتقى مرة أخرى؟ »

قالت « ماالفائدة ؟ كل مايمكن أن يقول له أحدنا للآخر قد قلناه الليلة ... استنفدنا كل حديث ... وليس أثقل من الكلام المعاد ، ولا أبغض إلىّ من الاجترار ... »

فقال: « ولكن يا سيدتى ، إن معرفتنا لم تكد تبدأ ؟ »

قالت « بل بدأت وانتهت .... لو التقينا ألف مرة ومرة لما زاد أحدنا علما بالآخر ... »

وابتسمت ، ومدت له راحتها الأخرى ، فتناولها بكفه الثانية وقالت له وهى تهز يديه : « تصور أن لقاءنا الليلة كان حلما فى حلم — الحياة على كل حال ليست أكثر من حلم ... ولا أحسن أو أطيب »

فسألها وهو مطبق على يديها :

« أنى لك كل هذه المعرفة والنظر ؟ »

قالت « يا لغرور الرجال ! »

فاعتذر وقال: « ولكن الوداع كريه ، ولست أعرف حتى اسمك » قالت وهى تسحب يديها برفق: « الاسم علامة وعنوان ، وقد عرفت كل ما هو جوهرى »

ودارت فمضت عنه مسرعة واختفت فى الظلام .

ولم يطق أن يبقى بعد أن تركته ، فمشى على مهل وهو مطرق يفكر فيما سمع ، ولا يستطيع أن يصدق أو يؤمن بحرف منه ، ولما بلغ بيته دخل وهو يحدث نفسه أن هذه السيدة لا شك مجنونة ، وأدركه العطف عليها ؛ فصار يتمتم وهو يخلع ثيابه: « مسكينة ... مسكينة ! »

ابراهيم عبد القادر المازنى

إشتراك الصيف

تقبل ادارة الرسالة والرواية الاشتراك الشهرى فى المجلتين أو فى احداهما شهرين على حضرات القراء فى زاهر الصيف وعقار الاشتراك فى الرسالة أربعة قروش وفى الرواية قرشان ترفع سلفاً

المـــرآة

أقصوصة فرنسية من « كاتول مينديز »

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

— ١ —

لم يكن هناك مرآة واحدة فى كل المملكة إذ أمرت الملكة فحطمت سائر أنواع المرايا ، حتى مرايا القصر الملكي العتيد لم تكن لتنجو من ذلك الأمر الصارم... وسنّت قوانين تقضى بأقسى العقوبات على كل من تحدثه نفسه باقتناء مرآة أما سبب كل هذا فإنه كان للملكة وجه يمد مقياساً للقبح ومثلا فى الدمامة . ولم تصدر هذا الأمر مخافة أن ترى صورتها الدميمة منعكسة على إحدى المرايا إبان تجوالها فى طرق البلد ، بل لأنها كانت تضن على الأخريات أن يرين جمالهن حقداً منها وحسدا . وليت شعرى ، ماذا تفيد المرأة من عينين نجلاوين ساحرتين ، وفم ياقوتى دقيق ، وجبين ناصع مشرق ، وشعر وحف ناعم ، إذا لم تمتع بصرها بذلك كله منعكساً على إحدى المرايا ... كذلك كان مستحيلاً أن ترى حسناء صورتها على سطح نهر أو قناة أو غدير . فقد أصدرت الملكة أمرها باخفاء مجراها . أما الآبار فقد كان منسوب أمواهها منخفضاً واستبدلت فيها الدلاء بأحواض من الحجر تمنع انعكاس الصور بأية حال... وقد سرى الحنق والسخط إلى كل القلوب لتلك المعاملة الشاذة وهذا الحكم الغريب خصوصاً بين ناهدات الصدر السواحر

— ٢ —

كانت هناك فتاة — تدعى جاسنيث وتثوى بالريف من تلك المملكة — لم يداخل قلبها اليأس ولم يحوّم حولها الحنق والضيق كأترابها من الحسناوات الفواتن ، إذ كان لها عاشق مدله القلب أضحى مرآتها الصافية الأمينة . فما برح منذ أن فتنه فتور لحظها الساجى ، يردد بين الحين والحين : « كم أنت جميلة فتانة ! ... أى قمري الزاهر ! ... » وكان وجهها يتضرج خجلا أمام هذه المرآة الناطقة وكل ما كانت جاسنيث تخافه ، هو أن يبلغ نبأ خطبتها على فتاها مسامع الملكة فتسعى للتفريق بينهما حباً منها فى تنغيص عيش الآخرين فضلاً عن أنها تكره جاسنيث خاصة لما أشيع من شدة جمالها وفتنتها

— ٣ —

واقترب يوم زفاف جاسنيث على فتاها . فخرجت ذات صباح تتأود نشوى كالغصن الرطيب ، وتتنقل فرحانة باليوم الغريب . خرجت تستنشق نسيم الصبح المعطار فاذا بها ترى عجوزا مقبلة عليها تترنح فى مشيتها كأنها شبح الفناء يدب دبيبه المضطرب . وسقطت الحيزبون على حين غرة وقد انشق صدرها عن صرخة مفزعة . فأسرعت جاسنيت إليها تقيل عثرتها . غير أن العجوز صاحت تقول : يا إلهى ! ماذا أرى ؟

— ما خطبك يا أمى ! .. وماذا ترين ؟ أنبئينى .

— وجه هو القبح بعينه

— لا إخالك تقصدينى بهذا الوصف

— والهفى عليك يا مسكينة ! بل انت ما أقصد إننى لم أر طوال حياتى أقبح منك

واختفت العجوز — وهى إحدى صنائع الملكة ضاحكة ساخرة . فارتمت جاسنيث على مقعد تحت أشجار البرتقال وأنشأت تبكى بكاء اليائس المحروم

— ٤ —

وأصبح مستحيلا إقناع جاسنيث بأنها جميلة وحاول فتاها أن يدخل فى روعها أن العجوز اللئيمة قد كذبتها القول ، وأنها شديدة الحسن فاتنة الجمال ... فأعيته الحيل وإذا أصر على إتمام الزواج يراها تبكي وتقول :

— ما ذا ؟ هل أكون أنا الدميمة زوجك ؟ أبداً ... إن حبي لك وحرصى على سعادتك يمنعاننى أن أكون زوجاً لك

« إذن ما العمل ؟ » ليس من سبيل لإثبات كذب هذه الشيطان المجوز وتحويل جاسنيث عن وهمها إلا الحصول على مرآة ... ولكن الملكة كلها ليس فيها مرآة

إذن يجب أن أقصد الملكة . فستأخذها رأفة بنا

— ٥ —

قالت الملكة القاسية الدميمة : ماذا هنالك . وما لهذين الشخصين قد أتيا ؟ فتقدم فتى جاسنيث قائلا :

— مولاتى ، إن أمام جلالتك أشقى العشاق طرًّا

— وهل أزعجتنى لتقول لى هذا القول ؟ وما شأنى أنا ونزاع جره الحب ؟

— عطفك يا مولاتى مرى جلالتك لنا بمرآة

— كيف تجرؤ يا هذا على ذكر المرآة أمامى ؟

— عفوك يا صاحبة الجلالة . أتضرع إليك أن تصغى إلي قصتى ولا تغضبي لقولى . . . هذه الفتاة التى تمثل أمام جلالتك قد استولى عليها وهم غريب أنها قبيحة الوجه

فقالت الملكة ضاحكة فى استخفاف وتشف :

— وإنها لكذلك . إنها محقة فى وهمها . وقد لا أذكر أنى رأيت من قبل أقبح منها وجهاً .

وفعلت هذه الكلمات المؤنسة فى قلب جاسنيث فعل السهام المسمومة . لم يعد هناك ريب فى أنها دميمة شوهاء . فقد شهدت بذلك الملكة كما شهدت به العجوز من قبل وامتقع وجهها حتى أضحى كوجوه الموتى ، وسقطت بعد ذلك أمام العرش فاقدة الحس . فصاح فتاها قائلا : إما أن تكون الملكة قد جُنّت . وإما أن يكون لديها من الأسباب ما يحملها على افتراء هذا الكذب . فلم يكد يتم هذه الجملة حتى قبض عليه الحراس وأشارت الملكة إلى الجلاد

— قم بواجبك ... فرفع الجلاد حسامه البراق

وحينئذ دوت صرختان مختلفتان إحداهما من فم جاسنيث بعد ما لمحت صورة وجهها منعكساً على السيف اللامع وكانت صرخة فرح عظيم . والأخرى من فم الملكة الحاسدة حين لمحت هى الأخرى صورة وجهها الشوه منعكسة على هذه المرآة غير المنتظرة . وكانت صرخة تتناوبها عوامل مختلفة من الخجل والعار والغضب

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

من ذكريات العراق

قصة حقيقية

للأستاذ علي الطنطاوي

كان ذلك في الربيع الماضي في أمسية حلوة ، اقترحت فيها على صديقي أنور ، أن نركب زورقاً من هذه الزوارق الجميلة ، ذات المقاعد الوثيرة والوسائد البيض المحشوة بريش النعام ، فنجول ساعة في دجلة نشهد غروب الشمس ، ونستمتع بالتأمل في هذا النهر الذي يحمل في كل قطرة منه ذكرى خليفة أو مغن أو شاعر أو عاشق ، ويحفظ بين أحنائه أوفى تاريخ لأجل عصر ذهبي نعمت في ظلاله البشرية .

وكان صاحب زورقنا شيخاً لطيفاً ، جميل الطلعة ، رائع المشيب ، له على شيبه سذاجة طفل ، ونظرات ملك ؛ وكان حسن الحديث ، كثير النوادر ، حاضر الجواب . فسمعنا من حديثه المعجب المطرب ، ومال بنا الحديث إلى كل جميل ، حتى وقف بنا عند الكلام على دجلة ... فقال الشيخ :

أنتم لا تعرفون ما دجلة ؟ عندكم منه هذا المنظر الذي يبدو من الجسر ؛ وقد تنتبهون إلى بناء الجسر وعوامانه التي يقوم عليها أكثر مما تنتبهون إلى النهر ! بل لقد تشغلكم عن هذا وذاك هذه السيارات التي تركب متنه بثقلها وأهوالها وأحمالها ، فيستجير منها الجسر ويئن ، ويضطرب ويميد ، فلا تحفل أنينه ولا تبالي اضطرابه ، ولا ترحمه ساعة من ليل أو نهار

قال أنور : لقد أنشئ الجسر لتمر عليه المها الفاتنات ، لا لتركبه هذه السيارات ...

— قال الشيخ : أما أنا فاني أرى في النهر عالماً : أرى فيه دنيا واسعة ، لا تدرون بها ياسكان القصور ، وقطان البر . أرى فيه النهر الذي يستيقظ مع السحر ، ليستقبل أول وفد من خيوط النور ، فيبسم له وترقص في استقباله أمواجه الصغيرة العابثة ، والنهر الذي تلتهب أمواهه في أشعة الهواجر من تموز وآب ، والنهر الذي يسكر من ريق القمر الذي يرتشفه في ليالي الصيف ... لك الله يا ليالي بغداد ! .. فيشبه فتاة صغيرة تترنح نشوى ، والنهر الذي يحكي المقبرة الموحشة ، حين يمر في ليالي الشتاء المظلمة ، أسود كالحاً مرعباً ، والنهر الذي ينقلب ممرض غرام حين تسرح فيه زوارق المحبين من أهل بغداد ، مدينة الجمال والجلال ، ومعهم الأعواد والقيثارات ، ومعهم ...

— قال أنور : شراب أبي نواس !

— قال الشيخ : لست أدري ما شراب أبي نواس ! ولكن ماذا يعنيني اسمه ؟ أليس هو الذي يخلق لك من الشقاء سعادة ، ومن الفقر غنى ، ومن المزبلة عرشاً مكللا بالجواهر ، والذي يفتح الحناجر بأرق ما عرفت دجلة من الأغاني ، من أيام ...

— قال أنور : إسحق وإبراهيم

— قال الشيخ : ويعقوب ويوسف عليهما السلام فضحكنا لمقالته ، حين يظن اسحق الموصلي من الأنبياء ، وعاد الشيخ يقول :

— والنهر الذي ينقلب وحشاً كاسراً كاشراً عن أنيابه ، ويغدو (نمراً) فتاكاً ، حين يفيض الزبد على شدقيه ، ويفتح فمه المهول ليبتلع بغداد وأهلها ويقذف بهذه الاطنان من الحديد التي

تثبت الجسر قذف الصبي بكرته .

هذا هو دجلة الذى أراه أجلّ من البحر ، وما البحر ؟ ما ذلك الملح الأجاج من هـذا العذب الفرات ؟ أين البحر الذى تصطخب أمواجه وهو فى مكانه ، كالطفل الذى يخبط الأرض برجليه من العجز ، من هذا النهر الذى يجرى فى سكون ، يجرى دائماً وابداً ؟ آه متى بدأ هذا النهر سيره ، وإلى أين يمشى ؟ اما لطوافه نهاية ، اما لمسيرة غاية ؟ والله يابنى لقـد فكرت فى ذلك أكثر من ألف مرّة . إن هذا لعجيب ! فما البحر ؟ البحر الذي يضطجع على رمال الساحل مثل حوت ميت قد جرفته الأمواج ، وأين هو من دجلة الذى يجول فى الأرض كسائح عالم ، أو عاشق هائم ، يسير بين القصور ، ثم يتنزه وسط الحدائق ، ثم يمرّ على بساتين النخيل

فقاطعه أنور صائحاً : النخيل النخيل ... ألم تسمع ما قال المعرىّ ؟

وردنا ماء دجـلة خير ماء
وزرنا أشرف الشجر النخيلا

قال الشيخ : أى والله ، هو والله أشرف الشجر . لو رأيت ظلال النخيل فى دجلة الساكن ، الذى يبدو عند الغروب كأنه المرآة المجلوّة ! فاذا مل القصور والحدائق والنخيل ذهب يمشى وحيدا فى الصحراء . يادجلة ! ماذا فى نفسه من ذكريات ؟ لقد كان أمس يمشي فى ظلال الايوان المشمخر ، ثم عاد اليوم يمشى على أطلاله الموحشة . ولقد كان يبصر قصر المتوكل العظيم فى مرّ من رأى ، فرجع لا يرى إلا أنقاضا خالية فوق انقاض ... له الله كم يذكر وكم يتألم !

فقال أنور : آه لو كان دجلة شاعراً ...

قلت . أفليس على طرفى دجلة شعراء ؟ فكم ديوانا فى نظم دجلة ؟ أما لو كان دجلة جاريا فى أرض الفرنسيين أو الانكليز ، إذن لملأوا به الدنيا شعراً

قال : هذا صحيح ، انا لا نعرف مقدار ما نملك . إنه لم يبق حادثة فى تاريخ فرنسا أو انكلترا ، ولا بقعة فى أرضهما إلا نظم فيها الشعراء ، وألف القصصيون ، ونحن نملك دجلة والنيل ولبنان ودمشق ، وعندنا تاريخ ثلاثة عشر قرنا ، يفيض بالبطولة والعظمة والمآسي والمباهج ، فماذا وصفنا وماذا ألّفنا ؟ لاشيء يذكر !

فتألمت وحزّت فى نفسى هذه الحقيقة ، فأحببت أن أبدّل مسرى الحديث ، فقلت للشيخ :

— ألا تخبرنا ما أمتع ذكرياتك فى هذا النهر ؟

فاهتز الشيخ ، وقال :

— تحب أن أحدثك عن أمتع ذكرياتى ؟ آه ... ماذا أذكر لك ؟ لقد قضيت سبعين سنة من حياتى أروح وأغدو فى هذا النهر ، منذ كان عمرى .. منذ كان .. لقد كنت دون العاشرة ، حينما جربت أن أمسك المجداف بيدى الصغيرة ، فكان أبى يشجعني ويستثير حماستى ، ولم أخرج بعد ذلك من النهر . لقد شهدت فيه الخريف والربيع والصيف والشتاء ، وأيام الصحو وليالى المطر ، ورأيت كثيراً حكومات مختلفـة وثورات وحروباً ، وركب فى زورقى آلاف مؤلفة من الناس ، فرأيت الغنى والفقير واليائس الذى يفر بآلامه إلى حضن النهر يلجأ إليه فى ضيقه ، ويديب ألمه فى جماله ، والعاشق الذى يبتغى الخلوة بمحبوبه بين الماء والسماء . ورأيت أشرافاً ومجرمين وكباراً وصغاراً ، وطربت وحزنت ، واستقبلت أولاداً وأحفاداً ، وودعت راحلين إلى حيث لا يعودون ... فعمّ أحدثك ؟ وماذا أذكر لك ؟

وسكت الشيخ يفكر ، ثم صاح وقد علت وجهه ومضة ، خطف نورها على جبينه المجعد قال :

لقد عرفت ، لقد عرفت ... إنى مهما رأيت ومهما شاهدت فلن أنسى حادثة هى أعمق فى نفسى من كل ما مرّ علىّ من حادثات الليالى . إنها أمتع ذكرياتى ...

لقد كانت ليلة من ليالى الخريف ، وقد بكر البرد فاعتزل الناس النهر . ولم يبق لنا من عمل ، فلت بزورقى ، فانزويت حيال ذلك القصر أتقى زمهرير الليل . ألا ترى إلى هذا البناء الأحمر ؟

— قلت : البرلمان ؟

— قال : لقد كان فيه يومئذ مولانا الملك فيصل رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنانه ، فوقفت زورقى أنتظر رزق الله — حتى انتصف الليل — ولم يجىء أحد ، فتسرب الملل إلى نفسى فانطلقت أغنى ... وإذا أنا بشباك يفتح فوق رأسى ويبرز منه رأس . فسكت وتأملته فاذا هو رأس رجل مهيب قد عدا طور الشباب . فانتظرت أن يؤنبنى على أن أزعجته عن منامه بغنائى ، وهل يليق بمثلى أن يغنى تحت شبابيك الملك بعد نصف الليل ...

ولكنه لم يعتب ولم يلم . وإنما قال لى بلهجة حلوة :

— مساء الخير يا عمّ !

— قلت : مساك الله بالخير يا بنى . لا تعتب علىّ ، لن أغنى بعد الآن . لقد كانت خطيئة من الملل . ما ذا أعمل يا بنى ؟ دعها لله ...

— قال : لا . أبداً . بالعكس لقد سررتنى . إنى مصاب بالأرق

— فضحكت وقلت : وأنا والله كذلك ولكنى شيخ كبير والشيخ لا ينام . أما أنت فلا تزال شاباً

— قال : ولكنها الهموم ... هموم الحياة

— قلت : وما ذا تشتغل أنت هنا ؟

— قال : خادم . خادم لكل الناس ، وعندى عيال ...

— قلت : لعلك محتاج إلى مال؟ لا تفكر يا بنى. الرزق مقسوم . الذى لك سيأتيك

— قال : ولكن ... آه صحيح ! كله قسم ... الحمد لله

وأحسست كأن فى صوته نغمة حزن ألمية ، ففهمت أنه محتاج وأخذتنى الشفقة عليه ، وانتويت والله يا بنى مساعدته ، (والبؤس يقرب بين الناس) فتلمست كيسى وجعلت أعد فلوسى فى الظلام ، فاذا أنا أملك ستة وتسعين فلساً

قلت : هيه ؟ ما اسمك ؟

قال : لك أن تدعونى عبد الله

قلت : يا عبد الله ، نحن إخوان فى الاسلام ، فلا تخجل منى ، خذ، هذه خمسون فلساً، انفقها على عيالك إلى أن يفرج الله وأنا آخذ منك عند ما أحتاج. لا تحمل همّا . الرزق على الله

فمد يده فأخذها ولم يقل شيئاً ، ولكنى رأيت الدمع ... أى والله رأيت الدمع يترقرق فى مآقيه

* * *

وانعقدت الصداقة بيننا وتوثقت ، فكان كلما أرق نادانى ، فأخرج رأسه من الشباك ، وطفقنا نتحدث ، فأبثه أحزانى ، وأنفض إليه وفاضى ، ويبثنى ويشكو إلى . ورأيته قد يسر الله عليه ، فكان يعطينى الدينار والخمسة والعشرة ، ثم يحتاج فيأخذ

منى ، ولكنى لم أكن أملك إلا عشرات من الفلوس فأدفعها إليه ، فيأخذها باسماً

وكنت مرة أناديه ، فما راعنى إلا شرطى مخيف الطلعة ، عابس باسر ، يقبل على وشواربه ترقص من الغضب، وصوته يغلب صوت الزورق البخارى الذى يقلّه ، قال :

— أتصرخ أمام قصر الملك أيها الوغد ! إذهب معى حتى أريك

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى دائرة الشرطة

قلت : إنى فى عرضك. أنا فى جوارك. عمري ثمانون وما دخلت دائرة حكومة ، أفأدخل الشرطة مثل المجرمين بعد هذه الشيبة ؟

قال : إخرس (زمال) إمش معى بلا كلام فارغ

وجذبنى ، فجعلت أبكى ولم أجرؤ على نداء عبد الله كيلا يطرد من عمله بسببي ، فأكون أنا الجانى عليه ؛ ولكنه سمعنى وفتح شباكه ، فلما رأيته خفت عليه ، فجعلت أغمز بعينى وأشير إليه أن يدخل فلا يفهم ، فقلت له : أدخل

فانتبه الشرطى وقال : من هو الذى تخاطبه ؟

قلت : لا أحد

قال : والله لتقولن ، أو لأفعلن بك الأفاعيل

فخشيته والله على نفسى ، فقلت : أكلم عبد الله خادم القصر

فابتسم ابتسامة منكرة ، ثم حرّق الأرض علىّ وصرخ بى :

— لقد عرفت ، آه أيها اللص ! إنكما تسرقان من القصر. سأريك أنت وهذا الخادم الخائن. ماجزاء من يسرق مولانا الملك ورفعت رأسى. فوجدته فى الشباك فهمست به أن أدخل ، ادخل يا مغفل

فانتبه الشرطى ، ورفع رأسه . فلما رأى عبدالله بهت حتى صارت عيناه فى رأسه ، وفتح فمه من الدهشة ، ثم رفع يده بالتحية العسكرية بعنف وشدة حتى مال به الزورق ، ووقف ينتظر

— فقال له : ماذا تريدون من صديقى : دعه واذهب

فعاد إلى التحية ، وأقبل علىّ يعتذر ويقبل يدى ويسألنى العفو عنه

— فقلت له وقد تأثرت لمشهد تذلله : اذهب يا بنى اذهب ، الله يسامحك !

فذهب المسكين وهو لا يصدق بالنجاة ، ووقفت حائراً لا أفهم من ذلك شيئاً ، حتى أخرج صديقى رأسه ، فقلت له :

— إيش هذا يا عبد الله ؟ إيش لون صرفته ؟ لقد خاف منك كأنك الملك

— قال : هذا من فضل الله

— قلت : ولكنه يريد أن يسوقك إلى السجن إنى أخشى عليك

— قال : لا . لا تخف !

وعدنا نتسامر ...

* * *

وكنت يوماً أسير فى شارع الرشيد ، وإذا أنا بصديقى عبد الله يسير وحده ، ففرحت بلقائه وهرعت إليه فحييته وسألته إلى أين يمشى ، فقال بأنه يريد الباب الشرقي . قلت : ولم تمشى ؟ اركب (باصاً) . إذا لم يكن معك فلوس ، فخذ منى ، منى بحمد الله

فضحك وقال لى إنى أريد الرياضة . ولقد كانت

معى سيارة أسوقها بنفسى ، فأصابها عطل عند (رأس القرية) فتركتها وسرت

— قلت : ألا تخاف أن يسرقها أحد ؟

— قال : لا . إن الشعب يحبنى كما أحبه

إي والله ، لقد كان الشعب يحبه ، وكيف لا يحبه وقد أنشأ له ملكاً ، وأقام له دولة ، وجعل له في الممالك المستقلة ذكراً ، رحمه الله . رحمه الله ...

— قلنا : ذلك هو الملك فيصل

— قال : وعمن إذن أحدثكم ! لقد كان الملك نفسه ، ولكني — لغباوتى وغلظ قلبى — لم أعرفه . أو هل سمعتم بملك يكون مع مثلى فلا يشعره أنه فوقه ، وإنما يستدين منه فلساً ويعطيه ديناراً ، ثم يكون مع الملوك فيشعرون من أنفسهم أنه فوقهم ؟ رحمه الله ، رحمه الله !

سرت معه فى الشارع ، فما راعنا إلا الناس ، ينظرون إليه بعيون تفيض بالحب والاكبار ، ثم يحيونه ويفتحون له الطريق ويمشون خلفه وينظرون إلى فيعجبون منى ، إذ أتكئ على ساعد الملك . إنه يسندنى ويعيننى لأنى شيخ كبير لاأطيق المشى ... فلما بلغنا الباب الشرقي رأيت الجند قد وقفوا لتحيته وصاح صائحهم بسلام الملك ، هنالك هوت رجلاى فلم تطيقا حملى ...

— قلنا : ثم ماذا ؟

— قال : لقد بقى يحدثنى من شبابه ، ولكنى لم أنتفع من نفسى بحديث ، إنى عرفت أنه الملك !

واغرورقت عينا الشيخ بالدموع ، فترك الزورق يمشى مع الماء ، ساكناً هادئاً ، وكان الليل قد غمر النهر والشاطئين بسواده الفاحم ، وطفق يقول همساً ، كأنما يناجى نفسه :

— رحمه الله ، رحمه الله ، ذلك هو الملك العظيم !

على الطنطاوى

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال أبو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر فى نهاية العام

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المنزلية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

أجنحة الحب

عن الانكليزية

للأستاذ عبد اللطيف النشار

« يارب ما هذا الكابوس ! »

ارتمى على المقعد بعد تناوله الغداء واستغرق فى النوم . وكان العرق يتصبب من جبينه ويداه ترتعشان . ولما استيقظ بعد ذلك كانت حركته عنيفة يدل عنفها على عمق نومه

ولقد كان يحلم حلماً مزعجاً بدا فيه وجه زوجته وارتفع صوتها . وألقت عليه عدة أسئلة لم يحر جواباً على واحد منها . ولما فتح عينيه كان يصيح صيحة رعب تدعو إلى الاشفاق

وكان سبب هذا الانزعاج كله شدة الحرارة فى تلك الغرفة لأن الموقد لم يطفأ ، وكانت النوافذ كلها مغلقة

على أن (هيلارى بنسون) عاد فأغمض عينيه مرة أخرى فعادت أفكاره إلى ذلك الكابوس البغيض الذى يعتاد أكثر من ينامون بالنهار . ورأى فى الحلم زوجته شيليا تنبئه بأعجب الأخبار وتخبره فى صراحة بأنها تبغضه وبأن حياتها معه مستحيلة وبأنها كانت ولا تزال تحب (جلبرت راى) وبأن كبرياءها وسوء فهمها لمعنى الشرف قد جعلاها تذعن للرجل الذى يدعونه زوجها . وإنها لذلك حملت أعباء التعاسة خمسة أعوام

ما أفظع ذلك الحلم !

لكنه بحمد الله ليس إلا حلماً فقط ! ... على أنه رأى شيئاً آخر ... كان على المنضدة أمامه خطاب رآه فى النوم ، وها هو يراه الآن فى يقظته ، فدهش من توافق الحلم واليقظة . وكانت زوجته قد غضبت من شىء فكتبت إليه بأنها ذاهبة ولن تعود . وقرأ الآن هذا الخطاب فوجده بهذا النص :

« لا أستطيع أن أستمر على الحياة معك فقد سئمت من مغالبة طباعى ، وعند ما يصل هذا الخطاب إليك سأكون قد فررت فلا تحاول البحث عنى »

ضحك هيلارى بنسون ضحكة عالية إذ ظن أنه لا يزال يحلم رغم يقظته ، ثم ضحك مرة أخرى وتنبه فوجد الخطاب أمامه وأدرك أن معظم الأمر حقيقة ، وقد يكون قد قرأ الخطاب قبل أن ينام ثم فقد الوعى قبل إتمامه . وهو رجل ضعيف البنية فللصدمات العصبية تأثير عنيف عليه

ذهبت شيليا إذن ؟

ولكن إلى أين ؟ هل ذهبت إلى جلبرت راى ؟ إن كانت الحقيقة كذلك فسيعرفها فى ظرف ساعة . واستدعى الخادم وهو يعتزم استجوابها وتعرف كل شىء من ترقب وجهها وفحص ما يبدو عليه من العلائم

ولكن لما جاءت الخادم لم يجد فى نفسه القدرة الكافية على ملاقاة نظرها ، وقال وهو ينظر إلى جهة أخرى : « أظن مسز بنسون قد خرجت ؟ »

فقالت : « نعم . بعد تناولها طعام الإفطار مباشرة »

قال : « وحدها ؟ » ، ثم لعن نفسه لأن هذا السؤال سخيف ، ولا بد أن تكون قد خرجت

وحدها . وقال مصححاً سؤاله : « ألم تقل إلى أين ذهبت أو متى تعود ؟ »

وظن لهجته غريبة فى نظر الفتاة ، وقبل أن تجيبه عاد فقال ليخفف ما ظنه غريباً : « إن سبب سؤالى هو ظنى أنها ستسافر ؛ ولست أتذكر هل هذا هو اليوم الذى أخبرتنى بأنها ستسافر فيه أم لا ؟ »

وكانت الغريزة تدفعه إلى إخفاء الحقيقة عن عينين متسائلتين . وكذلك أفجع الحوادث توحى بمثل هذه الرغبة فى الكتمان . فلو أن أمرها لم يصل إلى علم أحد غير أصحابها لما فكروا فى نشرها

وقالت الخادم : « إن سيدتها لم تأخذ معها شيئاً عند خروجها إلا حقيبة اليد التى اعتادت حملها . ولم تقل كلمة يفهم منها أنها ستغيب »

فشكرها وقال : « إن زوجته لا بد أن تعود فى وقت العشاء »

ثم مشى وهو ذاهل وقد ازداد ألمه . ولكن الفتاة لم تشعر بشىء غير عادى ، ثم عادت إلى المطبخ لتعد العشاء لسيدتها وسيدها

ولما بقى الزوج وحده فى الغرفة ضحك وعزم على الذهاب إلى بيت جلبرت ، فإن وجد زوجته هناك أمرها بأن تعود فى الحال إلى مسكنها الشرعى ، وإن لم يجدها الآن فانه سيجدها في اليوم التالى أو فى غده أو فى اليوم الذى يليه . وعزم على عدم العود إلى المنزل حتى تعود ، وأقسم لا يجلس إلى مائدة الطعام إلا وهى بجانبه

— ٢ —

ذرعت عربته الأميال الواقعة بين منزله وبين منزل (جلبرت راى) وكان الزوج قليل الأمل فى بقائها هناك لأن شخصين مجرمين من هذا النوع يبعد وجودهما مطمئنين فى منزل أحدهما

لكنه عزم على البحث عنها فى كل مظنة من مظنات وجودها . ثم يتابع البحث وهو يشعرها بأنه لا يظل مطمئناً فى داره . وكيف الاطمئنان وهو زوج مخدوع !

وقال للخادم : « هل المستر راى هنا ؟ إن كان هنا فقدم إليه هذه البطاقة » وأعطاه بطاقته فقاده الخادم إلى غرفة الجلوس ، وفيها استقبله رجل مسن وقال : « أأنت المستر بنسون ؟ أتذكر أنى رأيتك منذ عدة أعوام . أتريد أن تكلمنى أم تكلم ابنى ؟ »

فقال هيلارى بنسون : « إننى أريد أن أكلم ابنك جلبرت . ومهمتى معه سريعة لا تحتمل التأخير وأرجو أن تخبرنى أهو الآن فى المنزل أم لا ؟ »

نظر الرجل الهرم إلى بنسون نظرة استغراب لما فى لهجته من الانفعال ، ودنا من مكتبه فأخرج منه بطاقة وقال : « إن ابنى لا يقيم معى الآن وأنا آسف لذلك لأن مسكنى مظلم فى غيابه ، ولأنه يؤلم من كان فى مثل سنى أن يقيم وحده . وإذا كنت تريد مقابلة جلبرت فستجده فى هذا العنوان » :

وقدم إليه بطاقة فتناولها هذا وهو يرتعش ، ولم تخف حالته على الرجل المسن . ولكنه كان وديعاً رزيناً فلم يبد ملاحظة . وحاول بنسون أن يتكلم ولكنه لم يستطع فخرج وهو يتلعثم فركب عربته

ولو أن بنسون فكر قليلا بعد ما سمعه من هذا الرجل لأدرك أن فتى مثل جلبرت لا يترك مسكن أبيه ليقيم فى ناحية إلا إذا كان معه امرأة تساكنه ، ولم يخطر بباله قط أن جلبرت متزوج : لأن رغبته في الانتقام لا تتفق وهذه الفكرة . ولكنه لما ذهب إلى المنزل ووجد صاحبه متزوجاً واستقبلته تلك

الزوجة وأخبرته بأن زوجها جلبرت راى لا يعود إلا فى الساعة السابعة، وسألته هل الأمر الذى جاء من أجله يدعو إلى مخاطبة زوجها بالتليفون ؟

— قال بنسون إنه لا مدعاة إلى ذلك. وخرج وهو صاخب لأن مهمة ثانية ألقيت على عاتقه هى البحث عن رجل آخر تحبه شيليا غير جلبرت راى

لكن زوجة راى لم تتركه يغادر المنزل وهو متذمر يخاطب نفسه بصوت مرتفع وهو لا يدرك ذلك . فدعته وقالت : « أنت لا تعرفنى ولكننى أعرفك ، فأن زوجتك شيليا صديقتى وقد كانت طالبة معى فى المدرسة

ابتسم بنسون ابتسامة ارتباك ولم يجب فقالت : « إذا كنت أستطيع تأدية الخدمة التى جئت من أجلها لمقابلة زوجى فانى مستعدة لها » فلم يجد بنسون بدآ من الكلام وقال : « أنا أعرف أنك صديقة شيليا ومن أجل ذلك جئت ، فانها خرجت اليوم من المنزل فظننت أنها جاءت إليك »

فنظرت كلارا إليه نظرة المرتاب ثم قادته إلى غرفة الجلوس وقالت : « إجلس فربما استطعت مساعدتك على وجودها . فهاهو التلفون قريب منى »

فاطمأن بنسون إلى هذه الهدنة وجلس وهو يلوم نفسه على خطئه الفظيع فى اتهام جلبرت بزوجته . وقالت كلارا : « لماذا جئت تسأل عن زوجى فى أثناء بحثك عن زوجتك ؟ »

اضطرب بنسون وقال : « لأني ... لأنى ... » فقالت مقاطعة له : « تريد أن تقول إنك تعرف صداقتى بها وأنها ... ربما جاءت لكى تقيم فى ضيافتى يوماً أو يومين ؟ »

قال بنسون وهو ينظر إلى العينين الجميلتين المحدقتين فى وجهه : « نعم هذه هى فكرتي » فقالت كلارا : « إننى لاأرى فائدة من الكذب؟ والحقيقة أنك لم تكن تعلم أن جلبرت متزوج . وقد أخبرتنى شيليا بأنك منعتها عن ذكر اسمه أمامك . وقد جئت اليوم وأنت تظن أن الخيانة هي السبب الوحيد الذى يدعو الزوجة إلى ترك زوجها » فقال بنسون وقد بدا عليه الخجل : « لقد كنت مخطئاً فقد بدا لى هذا الخاطر فى حدة الغضب . وأرجو عدم المؤاخذة يامسز راى؛ وسأخبرك بالقصة ثم أصغى إلى نصيحتك . إن شيليا تركت لى خطاباً بأنها غادرت المنزل ولن تعود إليه . ولست أستطيع أن أكتم عنك حقيقة هى أن جلبرت كان يحبها منذ سنوات »

قالت كلارا ببساطة تامة : « أنا أعرف هذه الحقيقة وأخبرنى بها زوجى » فقال بنسون : « إن ارتيابى اليوم كان خطأ ، ولكن لماذا تركت منزلى ؟ هل شكت إليك من أنى عجزت عن إسعادها ؟ »

قالت كلارا : « إنك ضغطت على جناحيها فلم تمكنها من الطيران » فقال : « إننى لم أفهم ما تقولين »

قالت : « هكذا أنتم أيها الرجال. فهل استطاع رجل قبلك أن يفهم المرأة ؟ ان شيليا كالطائرة خفيفة القلب تريد أن ترفرف بجناحيها لحظة حول منزلها ثم تعود إليه كما تفعل الحمائم حول عشها . ولكنك تضطرها إلى الاقامة فى ظلمة الحياة المنزلية دون أن تفرج عن نفسها لحظة . إنها تحب المرح والموسيقى والألوان البهجة ، فكم مرة أخذتها إلى المسرح ؟ »

قال : « عندما يعود الرجل متعباً إلى منزله بعد عمل يستغرق طول النهار فمن الطبيعى أن يظل فى

المنزل » فقالت كلارا : « وأنت لا تحب العزف على البيان ، فاذا عزفت شيليا أمامك طلبت إليها أن تسكت ؛ وإذا تكلمت رجوتها أن تترك الثرثرة . هذا هو أنت ، وهذه هي شيليا التي أعرفها حق المعرفة »

فكر بنسون فيما سمع ثم قال : « بعض النساء يقمن بواجباتهن المنزلية خير قيام ولا يطلبن اللهو وأظنك واحدة منهن » فقالت : « نعم ولكن عندي من الترضيات ما ليس عند شيليا فان لي ابناً وليس لها »

قال بنسون : « قد أكون مندفعاً أو أنانيا ، ولكن هذا ليس بصلح عذراً لترك المرأة منزلها . وقد كنت ألاحظ من شيليا هدوءاً في العهد الأخير فأظنه علامة على الرضى ... على أن البحث عن الغلطات ليس يفيدني الآن ، وأنا أريد زوجتي يا مس راى ولا أعرف كيف يقابل الزوج خدمه وأصحابه إذا تركته زوجته » فقالت : « أنت لا تفكر إلا في نفسك فهلا فكرت في شيليا ؟ »

قال : « لقد أقسمت لا أجلس إلى مائدة الطعام إلا وهي بجانبي ولا أعود إلى المنزل حتى تعود » فقالت كلارا : « لقد وعدتني باستماع نصيحتي فاذهب إلى منزلك وانتظر عودة شيليا فأنا أعرفها . إنها تحاول تجربة أجنحتها ، ولكن أجنحتها لن تستطيع حملها مدة طويلة ، وليس ابتعادها إلا تمويجاً في الفضاء إلى أمد قصير

قال : « أهذا هو رأيك ؟ » فقالت : « نعم ، فاذهب إلى منزلك ولا تعد إلى الضغط على جناحيها »

قال : « ولماذا لم تخبريني بالمكان الذي ذهبت إليه ؟ » فقالت : « لأنك كنت تتبعها غاضباً صاخباً وتزيد من الضغط عليها فلا يهمك أنها غابت ويجب أن تكون واثقاً منها

— ٣ —

عاد بنسون إلى منزله في هدوء فجلس في الغرفة التي يسميها غرفة مكتبه ، وكان الليل قد أقبل وابترد الجو فانتعش أمام نار الموقد . وجاءت الخادم تخبره بأن العشاء قد أعد . ومع أنها لم تسأله عن سبب تغيب زوجته فقد كان عليه أن يخبرها منتحلاً أي عذر ، ولكنه أصر على عدم الكلام فقال : « إذهبي فأعدي الطعام ولا تعودي إلي مرة أخرى حتى أدعوك . هل فهمت ؟ لا تعودي إلي ! »

وذهبت الخادم وأخذ بنسون يمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة ، فلما زاد اضطراب أعصابه خرج من الغرفة وهو لا يعرف إلى أين يذهب ، ولكن الغريزة قادته إلى غرفة المائدة فجلس ناسياً قسمه بألا يجلس إليها حتى تعود زوجته . وتناول أول قطعة فتذكر قسمه واستعان بخياله على تحقيق مطلب الجوع فتخيل زوجته جالسة على الكرسي الذي بجانبه ، ووضع أمامها طبقاً وصار يقسم الطعام بين طبقه وبين ذلك الطبق . فلما هدأت ثورة الجوع قليلاً أدرك أن عمله هذا مضحك ، وأن الخادم إن رأته فسوف تسخر منه . لكنه اطمأن إلى أنه أمرها بعدم المجيء

وفي هذه اللحظة فتح الباب الذي وراءه وسمع هفهفة ثوب ووقع قدمين فلم يجرؤ على الالتفات ، وقال وهو يحسب أنه يخاطب خادمه : « لماذا جئت ؟ ألم أقل لك لا تعودي ! »

لكن التي فتحت الباب استمرت تمشي والتفت مكرها فرآها زوجته فصاح : « شيليا ! »

على أنه لو كان لم يقابل كلارا في ذلك اليوم لاستقبل زوجته بمثل هذه اللهجة : « أيتها الحمقاء

ما هذا المسلك المزرى ؟ لقد خرجت على ألا تعودى فندمت فى أقل من ساعة وأضحكت الناس على نفسك. إياك أن ترجعى إلى هذه الحماقة مرة أخرى »

لكن كلمات كلارا أثرت فى نفسه تأثيراً حسناً فانعقد لسانه ثم ابتسم وبعد لحظة قال : « تعال إلى عشك يا طائرى الجميل . لقد كنت لا أعرف كيف أتناول العشاء فى غيبتك فتصورتك بجانبى ، وقد كنت مخطئاً عند ما تحادثنا للمرة الأخيرة ، وكدت أجن عند ما تسلمت خطابك وأقسمت لا أعود إلى المنزل حتى تعودى ولا أجلس إلى المائدة إلا معك »

قالت شيليا : « وما الذى غير رأيك ؟ » فقال : « إن كلارا راى قد أرتنى مبلغ أنانيتى »

قالت : « وما الذى جعلك تذهب إلى منزل راي ؟ » فحرص على ألا يبوح لها بريبته ، ولكن أى تعليل آخر كان مستحيلا لأن زوجته تعلم أنه يعتقد بأن جلبرت غير متزوج فقال : « لأنى ... لأني ... » وتلعثم فقالت : « الواقع أنى كنت هناك وقد ذهبت لزيارة زوجته لأنها زميلتى فى المدرسة، ولم أخبرك بأن جلبرت متزوج لأنك كنت تمنعنى من ذكر اسمه »

قال : « لقد كلمتنى كلارا بما نبه ضميرى »

وقالت كلارا : « هما جناحان ضعيفان لا يقويان على حملى يابنسون ؛ وقد كنت أحاول تربية جناحين آخرين ، فلما جربت الفرار بهما من الحياة الزوجية لم أستطع ؛ ولذلك لن أعيد التجربة مرة أخرى »

فقال بنسون : « بل ستربين لك ولى جناحين حتى إذا مللنا العش طرنا سوياً فى جولة قصيرة حول عشنا ثم عدنا إليه »

عبد اللطيف النشار

الصيف خفيف هـــذا العام
لأن
شركة مصر للغزل والنسج
تقدم لكم المنسوجات القطنية
الخفيفة على اختلاف انواعها
معتدلة فى أثمانها جميلة فى الوانها
فبادروا بأخذ طلباتكم

سر نجفة القارة المظلمة

بقلم تونى كراوس
للأستاذ محمد لطفى جمعة

ما هو ذلك السر الذى يجعل الماضى فاتناً ، على الرغم من سواد بعض حواشيه ومرارة مذاق الكثير من أيامه ؟

ما هو ذلك السر الذى يمثل دور النقاش الماهر الذى يتناول الأقلام والألوان ليصبغ الحوادث بصبغة زاهية وردية وبنفسجية وخضراء رائعة ؟

ما هو ذلك السر الذى ينفخ من روحه فى أشباح الليالى والأيام الخالية فتنتفض مبعوثة من قبر الذكريات كالموتى التى تعاودها الحياة يوم النشور ، وقد خلعت عليها القوة الخالقة أثواباً قشيبة وحللا موشاة مزركشة ؟

بل ماهى القوة الخفية الماكرة الساحرة التى تنشر أمام عينيك لوحات مسلسلة متصله ، متحدة من تصاوير الحياة التى جرت وكرت وفرت . وقد أتقنت التقاطها واكتنازها وعرضها ، حتى إذا تأملتها وأنعمت النظر فيها أذهلتك دقتها وبراعة الحرص عليها ، فلم يفتها شىء مما يكون قد فاتك ولم تعه ذاكرتك فتراه ماثلا أمامك كأنك تراه وتسمعه لأول مرة

هل هذه «الفرجة» العجيبة نعمة أو نقمة؟ أهى هبة وموهبة تحمد الطبيعة عليها ، أم بلاء ووبال يسعد المرء بالخلاص منه ؟ الحق أننى لا أزال حائراً لا أدرى ما أقول لك ، وأنت التى حركت هذه الفكرة العميقة فى نفسى وأثرت كامن دائى

أهذه لوزان وبحيرة ليمان وأوسى التى غادرتها منذ عشرين عاماً ، بعد أن أرغمتنى طوارئ الحياة القاسية على قطع حبال الشباب، وتبديد أواصر السعادة، فهجرت غرفتى ودرسى فى فيلا بيانكا بأفنود يزاليب . لقد مات أبى فى جنوب أفريقيا ، هيرمان كراوس صاحب منجم الماس المنسوب إليه فى السبعين من عمره. ولم يكن مريضاً بداء سوى الشيخوخة المباركة السعيدة ولكن فقده كان أليماً علىّ وعلى والدتى لأننى أول أولاده وآخرهم.. نعم . نعم إنه لم يتزوج إلا بعد الخمسين من عمره بأشهر معدودة . وهو الذى جاء بى فى العاشرة من عمرى إلى فيلا بيانكا لأتلقى اللغات الحديثة على موسيو بروشيه وزوجته . كان يحب أن ينشئنى بعيداً عن بيئة المناجم

(تونى كراوس هو كاتب هذه القصة القصيرة ، وقد أثارت شكوكا كثيرة لأن بطلها يحمل لقب المؤلف نفسه . فتساءل النقاد إن كان قريبه أو تمت له برابطة من روابط الدم والنسب . وعلى كل حال فان القصة لاتنطوى على مايشين بطلها .. وليس الخلق فى اختيار الموضوع بقدر المهارة فى سرد الوقائع وبسطها وشرحها بعد طيها ، واتخاذ العقدة من نوادر الأقضية والأقدار ؛ وحلها على طريقة سهلة لينة تغرى القارىء بتتبعها باقصى الشوق. أما الرواية المزعوم — وهذا الحقيق — دوجلاس كراوس نجل هيرمان كراوس فلم يرث عن أبيه سوى الملايين وتاريخ الحصول على الكثير أما المخاطرة والمغامرة وتجرع كؤوس الألم فلم يرث الولد منها شيئاً سوى المبالغ فى الترف والاضطجاع على المقاعد الفاخرة فى الفنادق الكبرى فى جنب المحطات وقد سلك المؤلف مسلكا طريفاً فى سرد الحوادث الفاجعة بتسلسل وسلاسة يشهدان له بعلو الكعب وطول الباع). عن وايدورلد مجلتين (مجلة أرض الله الواسعة)

(١) Candelabre نجمة حملة الشموع من المعدن والبلور وتكتب condelabrum ويمكن تعريبها بالقريا مجازاً وفى العربى النجف الاشرف

الصاخبة المهلكة . ليس المال الذى تركه لوالدتى ولأمى هو الذى يهمنا . كان يهمنا أن يعيش ولو عشر سنين أخرى ، حتى أبلغ ختام العقد الثالث ، كانت هذه هي أمنيته . ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه . كان يزورنى كل عامين مرة . . ومنذ صار الطيران مأمون العواقب كان يجىء إلى سويسرا مرة فى العام مصحوباً بوالدتى . والمرة الأخيرة باقية صورتها فى ذهنى لا تزول كأنها شريط صورة متحركة ... كان يشعر المسكين أنها زيارة الوداع . وكان يقولها وقد أفضى إلىّ بسر حياته . إنه سرٌ رهيب يأنطونيا . انت فرنسية ... فلاحة من شالون سيرسون ... ماذا تقولين ؟ قرية شوفاى ؟ . ربما ! أنت طبعاً أدرى باسم قريتك الذى لا يهمنى بقدر ما يهمنى جمال عينيك وسواد شعرك وتنضيد ثناياك .. أقول إنك فلاحة فرنسية فلا يمكن أن تدركي روحى وروح أبى . أى نفسيتنا — حالتنا النفسية — عقليتنا غريبة عنك وعن قومك . نحن هولانديون أصلاً ، ويهود عقيدة وانجليز وطناً ومغامرون هواية وباحثون عن المال فى كمبرلى احترافاً . وقبل كل شىء طلاب مال ، وقد حصلنا عليه مصادفة وتوفيقاً بعد أن فشلنا فى اجتهادنا .. ليس النجاح حليف الاجتهاد أبداً . . لا تصدقى هذا الوهم . هذه خرافة اخترعها اتباع الفكر الحر والملاحدة .

المرء يا نينا لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ... صدقينى ... إيه ؟ نعم ؟ تقولين إننى قدرى لأنى يهودى ؟ ويدهشك أننى أبدو أكثر ذكاء مما ينبغي لمثلى فى مثل سنى ! كذبت وأبيك ، أنا قدرى ، أومن بالأقضية والأقدار ، لا لأنى يهودى ، بل لأن حياة أبي صفحة من كتاب القدر ، والواقع يؤيدنى وأبدو أكثر ذكاء مما ينبغى لمثلى . هذه محمدة أو مذمة ؟ نيتك تفسر كلمتك . إن كان ما تزعمين صحيحاً ، فلأننى عشت سنوات التكوين بعيداً عن حنان والدي ، ولا سيما أمى ، فلم أتعود التدليل واللابنة فاعتمدت على نفسى فى معظم الأحوال ، حنان بروشيه الرجل وبروشيه المرأة كحنان الإوز صوت يجلب الصداع ، بلا ثدى ولا رضاع . فربيت نفسى وأدبتها . وأنت أيضاً لك الفضل فى تعليمى . أنا أحبك منذ ثلاث سنوات وأخفى حبك عن العالمين . لو علم أبى بعلاقتنا لقطع أسباب رزقى وتركنى ضائعاً فى شوارع لوزان المتجمدة ، كنت أبيع القطن شتاء والبنفسج صيفاً على متنزه مونبوزون ، أنا دوجلاس ابن المكرم هيرمان كراوس صاحب منجم الماس بكمبرلى . وحتى هذا الشيخ الطيب بروشيه ، لو لحنى فى تلك الفترة لوشى بى عند والدى لينال الحظوة والمكانة . والحق يقال إن والدي أغدق عليه وأوصاه بي . وحمل إليه هدايا كثيرة من كابتون وبلومفونتين ولادى شميت ، خصوصاً ذكريات حرب البوير الأليمة التى دوخنا فيها جيوش جلالة الملكة والأمبراطورة فيكتوريا ريجينا . نحن سلالة البوير الأماجد ، ورئيسنا كروجر قوبل فى مرسيليا بمظاهر التعظيم والفرح

ولكن هذا تاريخ قديم . يهمنى أن أقول لك إن قومك قوالون لا فعالون ، فيف لا ليبرتيه ! وبعد ذلك بقليل فيف لا نجلتير . لا يهمكم إلا الفرنك ومستعمرات شمال أفريقيا وبعدكم الطوفان ولكن الله سلّم ! لم يرنا أحد ، لأننى كنت أحتاط فى رحلاتنا الصغيرة إلى مورجان وشاتيل جيون والآن يا نينا يمكننى أن أعيش معك فى صراحة

وعلانية ، بعد أن مات الوالد العزيز . لقد سلبنى موته سعادة الشباب وعدم الشعور بأعباء الحياة ، وجلب لى الحرية والمال . أى ؟ ... أنا لا أعبأ بها. إنها فى الخامسة والثلاثين من عمرها وغنية جداً ، وتملك قصوراً فى هولاندا ورثتها عن أبيها إيليا ڤان كيكوم أحد الشركاء فى مصنع قطع الماس فى امستردام ، وضياعاً ومناجم فى جنوب أفريقا ورثتها عن أبى فما حاجتها إلىّ . يمكنها أن تتزوج بمن تشاء فى أى وقت تشاء، وليس فى الوصية الكريمة شرط يعوقها ولا فى شريعتنا مانع يحرمها نعمة القران .. أنا لا أذهب إلى جنوب أفريقا إلا مرة واحدة كل عام لأقبض نصيبى وأشرف على مجلس إدارة المنجم الصغير الذى وقع فى سهمى . وهكذا هبطت من سماء التعليم الجامعى إلى حضيض الاتجار بالجواهر — كوهى نور — كوكب أفريقا — درة رودیسیا — ولكن أعظمها جميعاً نجفة القارة المظلمة . طبعاً أنت لا تعلمين شيئاً عن تاريخ تلك الجوهرة الفذة : نجفة القارة المظلمة . إن تاريخها هو تاريخ ثروتنا — ثروتنا وفقرنا — أعنى أننا بدونها لم نكن شيئاً مذكوراً . إننى تلقيت السر عن صاحب الشأن نفسه فى القصة ، عن والدى العاطر الذكر هيرمان كراوس . (فيرست هاند أنفورماشن) كيف أقولها لك بالفرنسية ؟ خبر صحيح عن صاحبه مباشرة — حديث مباشر لا وسيط فيه بينى وبينه، باح لى به قبل أن يموت ببضعة أشهر . لقد قلت له بعد أن حكاه واضطجع منهوك القوى : بحق چيهوا ، إنك واسع الخيال يا والدى خصب المواهب . خسارة كبرى أنك لم تنل حظك من تأليف المرئيات[٢] للصور المتحركة. وكنت جاداً لا هازلاً . فابتسم المرحوم ابتسامة صفراء ، ثم حرق الأرم وأبرز فكه الأسفل وبدت فى نظرته الشزراء شملة لم أر مثيلها وقال لى : حسناً تفعل إذ تشك فى صدق أبيك . وقفز فى أقل من لمح البصر وعاد بالوثائق التى لا تقبل الشك فى إثبات صدق روايته . وإليك الآن خلاصة منها كما حدثنى أبى : « قال نشأت فى جنوب أفريقيا من والدين هولانديين ، وكنا نعيش فى ضيعة صغيرة على ضفاف نهر أورانج، وكنت منذ نعومة أظفارى أسمع الحديث عن الأحجار الكريمة ، والجواهر الثمينة ولاسيما الماس . فاعتقدت بكل قواى أن ثرائى وعزى ومستقبل حياتى فى الماس ، دون سواه . فى ذلك الحجر اللامع البرّاق الذى يشع منه النور بقوة سحرية . ولكن أبى كان يعترضنى ويوصينى بالأرض والزراعة ويقول : إن الطبيعة خير ضامن لحياة الانسان، وإنها إن ضنت عليك اليوم بخيرها ، لا بد أن تجود بأضعافه غداً . الأرض كالفادة تغضب يوماً وترضى أياماً . ولكن قوله لم يقنعنى فتيلاً ، فهجرت المزرعة والاصطبل والمرعى ، ورحلت إلى رأس الرجاء وناتال وديربان ومدغشقر، واشتغلت فى كل صنعة وفن حتى ادخرت مالاً قليلا فشددت رحلى إلى مناجم الماس وشربت « أمهماً فى امتياز » ومعنى ذلك أننى نلت حقاً بالبحث والتنقيب ، فاستأجرت عمالا واستخرت الله فى بقعة من الأرض الموعودة . وأخذنا نعمل ليل نهار فى بطن الأرض نتلمس البريق من خبايا الطبقات المظلمة حتى إذا لمحنا ما يشبه اللمعة طارت نفوسنا شعاعاً ... ولكن أتعابنا ذهبت هباء ، وهكذا المال ... وهناك حول جيمستون وكيمبرلى وكونكوست لوك رجال يتجرون فى عقولنا ويعيشون

(١) فى الأصل سناريو

على غفلتنا ، فيبيعون لكل راغب خرائط رثة ورموزاً عتيقة ووثائق مزيفة يزعمون أنها نتيجة فحص المنقبين وأنهم يملكون مفاتيحها بشرط أن تشتريها فيدلونك على نفس البقعة التي لا تحوجك إلى كثير عناء . ويزينون حديثهم بإبراز قصاصات من الصحف تؤيد مزاعمهم وقصصهم ويدعمون خرافتهم بأسماء وألقاب وتواريخ . فلا يكاد أحدنا من المستجدين على قائمة الأطماع التي لاحد لها ، يسمع ويقرأ ويري وجه المهندس المجعد وحاجبيه الأبيضين وجبينه الملىء بالخطوط والتنايا وعينيه الخارقتين كعيني العُقاب حتى تزول آخر شكوكه ، ويؤمن بصدقه ويجود بالمال في سبيل الحصول على « دليل المنجم » (وهم هكذا يسمون تلك الخرائط والرسوم) فيتوهم أنه حصل على عقد ملكية أو « حجة بيع » لأرض ثابتة الحدود والمعالم لا ينقصه إلا وضع اليد لاستغلالها ولم يخطر ببال أحد منا ونحن نبذل المال في سبيل هذه الخرائط الوهمية أنها لو كانت ذات قيمة أو تدل على مواطن المناجم لكان صاحبها الذي يبيعها أولى الناس بها . وحدث في يوم من الأيام أن عرض علىّ أحد هؤلاء المتاجرين بالخيال والآمال فأخرجت الثمن مائة جنيه انجليزي وتناولت الورقة بيدي ثم وقفت فجأة وامتنعت عن الدفع وقلت له :

— إذا كان ما تقول حقاً فما يدعوك إلى التفريط في دليل المنجم بالبيع ؟

فابتسم الرجل ابتسامة عريضة ساخرة وكشر عن أنياب طويلة صفراء وقال :

— سؤال وجيه والجوابُ عليه أَوْجَه . اعلم ياسيدي الباحث عن المال أن شراء المدد واستئجار الرجال وتأسيس مستعمرة للتنقيب وتسليح الحرس ونفقات العلاج وأنصبة التأمين على حياة العمال الذين قد يقضون نحبهم في جوف المنجم ، كل تلك النفقات تفوق مقدوري على الصرف . ولو وجدت رجلاً مثلك يقدم المال ليكون الأمر بيننا مشاركة بالنصف مافرطت في هذا الدليل بالبيع . قلت : ولِمَ لا تؤسس شركة مساهمة

قال : يطلب مجلس الأمناء قبل الاكتتاب برأس المال الوقوف على السر ، فاذا وقفوا عليه ضربوا بالشرف عرض الحائط واستغلوا المنجم لأنفسهم وهذا حدث بنصه وفصه لجون صاطسفلند وها كني كوتس سپرنج وكاين كلندر دويست الهولندي وغيرهم .

فما كاد الرجل يفرغ من كلماته حتى دفعت المال وأخذت الخريطة

واعتدل المتكلم دوجلاس كراوس في مقعده على ڤيراندا فندق بوسيجور المطلة على بحيرة ليمان في في مدينة لوزان تلك المدينة التي تعلم فيها على يد موسيو بروشيه وحرمه . وأفرغ نظراته الحارة الخارقة في عيني عشيرته أنطونيا شينو (وكان يدعوها نينا تدليلاً) تلك الريفية من شوفاي سيرسون التي عاصمتها شالون . ومد ذراعه القوية المتينة حول خصرها ودعا بالخادم وقال له :

زدنا من ذلك الشراب الأخضر

فقالت نينا : پيرنو . ثم نظرت إلى عاشقها العملاق الحليق الشارب والعارضين وقالت له : إنها قصة عجيبة عميقة ، يزيدها جمالاً أنك راويها ، وأنها حقيقة لاشك فيها

فقال : كلما أتذكر أنه لولا ما قاساه أبي هيرمان كراوس من الآلام ووقع فيه من المخاطر ، لم أكن

لأتمتع بشيء مما أنا فيه من ضروب النعم ، أشعر بلذعة الندم على أنني لم أكن قادراً على معونته . وجاء الخادم بالقنينة الخضراء والكأسين فملأهما وأرقت الخمرة الزمردية في ضوء الأصيل وانمسكت أشمتها على معدن الآنية البيضاء اللامعة . وانحنى دوجلاس على وجه نينا ليقبلها فرفعت رأسها وأدنت فمها من فمه في قبلة طويلة حالمة

— ومن العبث أن أقول لك ياولدى — هذا أبي الذي يتكلم بانينا لاتفقدي خيط القصة — حذار! — من العبث أن أقول لك ياولدي إن بائع الخريطة هو الذي فاز بالمنجم ، منجم الذهب أي المائة جنيه التي دفعتها. وهاهي ذي الخريطة عندي لم يقوَ أحد على حل رموزها. ولو كان الملك سليمان نفسه نبي عشيرتنا نحن بني إسرائيل حياً يرزق ما قدر على فك أسرارها . فلما فقدت ما كان مي عدت إلى العمل والكفاح حتى جمعت ألف جنيه — ومن يستطيع دخول باب الجنة أو جهنم بأقل من هذا القدر من المال ؟

وفي هذه المرة ابتسمت لي الدنيا فانني تعرفت إلى نقابة من الباحثين — يسمونها نقابة أي نواة لشركة مساهمة — كنا أربعة ومع كل منا ألف جنيه، فبحثنا عن خامس يملك ألفاً آخر ، حتى وجدناه ، فانضم إلينا وهجمنا على منجم مهجور واصطنعنا عقد بيع صوري من أصحابه الأقدمين ولم نكن نعرفهم ولم نسمع بأسمائهم ، ولكن في دياموندفيل وكلاء أعمال ووسطاء يقومون بهذا النوع من الخداع والتزييف . ثم سجلوا العقد وختموه بأختام أورانج ريفر كولاني وترنسفال ريبيليك — ولا يزال ختم هذا المسكين كروجر عندي على هذه الورقة البالية — أنت تعرفه في التاريخ ، إن لم يكن الانجليز محوا اسمه من دفاتر التلاميذ في المدارس ، هو الرجل البوري العجوز الذي وقف في وجه امبراطورية بريطانيا العظمى لحرية وطنه . ثم أخذنا في العمل على قدر ما يسمح به رأس المال الضئيل . خمسة آلاف جنيه رأس مال ضئيل جداً كالذبابة على أذن الفيل ، بالنسبة للأموال التي تجمع وتفرق بل تذوب . إن المال الذي يضيع كل عام في البحث عن الماس يكفي ثمنا لنصف الماس الموجود في العالم ... تصور ياولدي دوجلاس . وأخيراً .. بعد جهاد دام ثلاثة أعوام ذقنا فيها مرارة العيش ورضينا بشظف الحياة — عثرت أنا بالحجر الكريم في شكل فصوص صغيرة لا تزيد على قلامة الأظافر . فاحتفلنا ومزحنا وطعمنا وشربنا وأغدقنا على العمال والأحراس وضاعفنا قوة العمل مع أن الذي وجدناه لا تبلغ قيمته خمسين جنيهاً. ولكن من يدري لعل في المنجم ما قيمته خمسة ملايين.

ولكن فجأة تغير الجو في المنجم ، أي بيننا نحو الشركاء ، فحدثت شبه عاصفة ، فأدركت السر من أول الأمر ، ثلاثة من الأقوياء وهم شرار النقابة تواطأوا فيما بينهم على إقصائي وصاحبي ، ولهم في ذلك وسائل شتى — وإنهم والحق يقال ليقون على حياتك إذا تنازلت عن كل حقوقك في صمت وبدون مقاومة، فان ثُرتَ على هذا النظام الجائر يقدمون إليك ما شئت من المال نقداً وعداً حتى ترضى ، وتوقع بامضائك على صك تنازلك — واعلم أن هذا الصك يشمل أيضاً الحكم عليك بالاعدام فانهم يتناولون الورقة باليمين ويطلقون عليك الرصاص بالشمال . ولكن متى تقع هذه الفتنة ؟ عند ظهور الجوهر في المنجم ، لا قبل ذلك

فقال لى صاحبي وهو شريكى فى التنازل المحتوم والموت المنتظر : الأولى لنا أن نتملق بأذيال الفرار ثم صمت قليلا وقال: هل لك فى مغامرة ؟ قلت نعم. قال نؤلب العمال والأحراس عليهم فنتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا . قلت : ومن يضمن أن العمال والأحراس لا يتعشون بنا ؟ قال : هى المغامرة كما قلت لك . ولم أكن غريباً عن جنوب أفريقا ، ولكننى غريب عن المقاطعة، فقلت له : والحكومة ؟

فقال : الحكومة ... أية حكومة ؟ الحكومة هى الميان : المنجم والمال ... (١)

وفى تلك اللحظة تمثلت لى حلاوة الحياة فقلت: أما أنا فألوز بالفرار وأنجو بالبقية الباقية من عمرى

ولم نكد ننتهى من هذه المؤامرة الخائبة حتى دخل علينا الثلاثة الأوغاد وقالوا : «هاندزأب» وهى نذير الهلاك والفناء والقضاء المبرم ، فرفعنا أيدينا ثم أملينا تنازلنا ووقعنا عليه تحت أفواه المسدسات ، فتناوله المتآمرون ثم جلدونا بالسياط حتى أدموا جباهنا وشوهوا وجوهنا وساقونا أمامهم كما تساق الأنعام حتى أخرجونا من حدود المنجم الذى روينا أرضه بدماء قلوبنا وعرق جبيننا . وفى الظلام الحالك أطلقوا علينا الرصاص فأردوا صاحبي قتيلا ونجوت وحدى وكانت معجزة . فقالت نينا : كل هذا فى فى سبيل الماس ! فضحك دوجلاس كراوس نجل هيرمان كراوس الذى قاسى هذا العذاب

— سبيل الماس وأين هو ؟ فى سبيل الأمل. ألا تعلمين أن كل قرط أو حلية أو خاتم من ذلك الحجر اللئيم الملعون يحمل فى بريق أشعته دماء ألوف من الناس ودموع أرامل وأيتام وأيامى لاعديدلهم؟

يقول أبى هيرمان كراوس : فجربت بليل ، وجست خلال الأدغال والحراج ، ولامست الأفاعى والحيات ، وكدت أقع فريسة لأنياب الضوارى ؛ وكان فى أذنى طنين ورنين ، وفى عينى بريق ، وفى صدرى زفير بغير شهيق . المال الضائع والأمل الخائب والغدر المبيت ومصرع الرفيق ووحشة الطريق .. كم يوماً فى الطريق ؟ لم أعد الساعات ولم أحص الأيام والليالى — كان صباح وكان مساء ، وكان برد ومطر وعاصفة وقيظ ، فتمزق وجهى وخلقت ثيابى ، وتبددت نعال حذائى . فلما أمنت عاقبة الاقتفاء وأيقنت أن لا أحد يرانى ولا طاق يصيبنى ارتميت على ظهرى فى سفح جبل ... فى مكان جميل ولكنه موحش . نور ومجرى ماء وشجرة تفاح برى وحصباء ممهدة بلون الياقوت . وكنت في أشد الجوع وأحر الظمأ ؛ ولكن تعبى وانتهاك قواى كانا أشد على نفسى من الجوع والعطش، فلم أملك طعاماً ولا شراباً وإن جرى الماء تحت قدمى ودنت الفاكهة من يدى . فنمت واستغرقت وحلمت كما يحلم الحيوان ورأيت فى الرقاد ما يرى القط والكلب والفهد .. ثم رأيت رؤى الرجال .. مخلوقات البشر . صاحبي الذى قتل برصاص الأوغاد الثلاثة ما زال حياً ، وما زلنا نجرى للفرار من أيديهم ، حتى بلغنا مكاناً قصياً فتصالحنا ثم تخاصمنا فنازلنى ولا كمنى إلى أن عجز عن التغلب علىّ فتناول صخرة ضخمة وقذفنى بها ، فأصاب رأسى فصرخت ووقعت مغشياً علىّ

فى تلك اللحظة فتحت عينى على ألم فى رأسى لم أرَ مثله، فوضعت يدى مكان الألم فاذا سائل لزج يجرى ويتدفق فحولت يدى أمام عينى فاذا بها ملطخة

(١) بالانجليزية ميان أيضاً mine and maney

بدمى فنهضت مذعوراً ، وإذا بى أرى حجراً ضخماً قد شج رأسى من خلف فتناولته ..

أنظر ! إسمع ! إعجب . حجر من الماس لا يقل وزنه عن أقة ونصف أقة.. لو أننى عثرت به فى حالة الصحة والرضى والبحبوحة لفقدت عقلى . ولكننى وجدته وأنا قريب من الموت والجنون ، فلم يزدنى ذهولاً ولا ألماً ؛ والدم الذى كان يقتلنى لو غلا فى عروقى من شدة الفرح فصدته مصادفة . كيف تفسر تلك الحادثة ؟ يا دوجلاس ، هدية الروح ، روح صاحبى التى زهقت ، إلىّ أنا الشريك المخلص . أراد أن يغنينى ويقتلنى .. يغنينى قبل الموت بطرفة عين ، فتصيد تلك الماسة الضخمة وقذفنى بها ليشج رأسى وليهدينى — إن كانت الموتى تهدى الموتى — إلى أن ما لم يُنَل فى الحياة قد نيل قبيل الموت .. لا ، لقد عرفتها فى طرفة عين فى اليقظة القصيرة بين الموتة الصغرى والنوم العميق . أيُعقل أن مثلى يجهل الماس، ذلك الحجر الذى قضيت بعض عمرى فى البحث عنه والتنقيب عليه ؟

نهضت مذعوراً وفرحاً . وبعد أن كنت آمناً فى الوحدة مطمئناً للسكون والخلوة ، أرحب بالأخطار التى قد تنقذنى من حياة القفر والفقر ، أمسيت مرعوباً من صحبة البشر أترقبها فى قلق وأدعو الله أن ينقذنى منها . وكان همى أن أفر من ذلك الوادى السحيق إلى الحضارة التى تعرف الجواهر وتقدرها . وفتحت عينى على الشبع بعد الجوع ، والراحة بعد التعب ، والرى بعد الظمأ . ولكن دمى كان ينزف غزيراً حاراً لزجاً ، كحمرة الجن . فغسلت الجرح بماء الغدير ثم ضمدته بأوراق الشجر وفكرت فى طريقة لاخفاء الماسة — وهى التى صارت بعد بضعة أشهر نجفة القارة المظلمة التى أمست أغلى علىّ من نفسى وأعز ، فلم يهدنى خيالى إلى خير من أن أشدها إلى فجوة رأسى التى جرحتها . وانتزعت أكمام سترتى وصنعت منها رباطاً متيناً ، صار والحجر الكريم تحته كعمامة مهراجاه هندى . ولكن مظهره يدل على منتهى الفقر

وكسبت من الكنز الذى أحمله قوة عصبية وجلداً على السير . وتبلغت ببضع تفاحات وتزودت بمثلها واحتسيت الماء براحتى ووجدت فى ذلك الاناء لذة كبرى . كنت بالطبع أخبط فى الغاب خبط عشواء لولا أن أشرق القمر ودلنى نوره على اتجاه الشمال الغربى الذى أقصد إليه . أتصدق يا ولدى دوجلاس — هكذا كان أبى يقول — أن الخراب أكثر من العمران بمراحل، وأن الخراب أغنى من العمران بجماله واتساع أركانه ووفرة خيراته؟ فكنت أسأل نفسى فى دُجى الليل — أنا ذلك اليهودى المتنصر — سبحانك يا يهوا ! هل خلقت كل هذا عبثاً ؟ حاشا وكلا ! لمن هذه المساحة الشاسعة من الأرض ، وتلك البطاح التى لا يحدها البصر ولا يبلغ مداها المنظار المقرب والعدسات المكبرة ؟ وكم مضى من القرون على تلك الأراضى الخصيبة الصالحة للزرع والضرع ، والأنهار الجارية والجبال الشامخة والرياح المدوية والبساتين المثمرة بالأشجار والأزهار المخضلة اليانعة كالأبكار التى تقضى الشباب فى التبتل والحرمان الدائم؟ أخلقت سبحانك هذا الغنى عبثاً ؟ إن الملايين من هذا الجنس البشرى التعس تعيش فى أماكن ضنكة متزاحمة متلاحمة متراصة كتماثيل الخشب وهى فى غفلة وجهالة عن هذه الساحات والمساحات ! تتنفس الأهوية القذرة

الملوثة وفى الكون ذلك الفضاء الواسع . وأنا .. أنا هيرمان كراوس .. أسير وحدى واحمل على رأسى ثروة تقدر بالملايين ، ولا يعلم بي أحد من خلقك ، ولو علموا بى لمزقونى إرباً ، ولو كانوا أقرب الناس إلىّ ، لينالوا تلك الجوهرة الثمينة التى أصابتنى فى يافوخى ... كما تعلم يا جيهوا عند ما أردت أنت ، ولم أكن أريد ولاأشعر ولا أنتظر. إنى أكاد أجن من الفرح والدهشة والخوف والرهبة منك يا جيهوا ! رزقتنى بغير حساب ولا اجتهاد ولا انتظار .

— تك ! تك ! يا دوجلاس العزيز

— ماذا بك يا نينا ؟

— أبوك هذا كان حاخاماً من الدرجة الأولى ؛ كان يتكلم كأنبياء بنى إسرائيل ، لا أذكر أننى سمعت مثل هذا الكلام إلا من فم جدتى وهى تقرأ بعض صفحات العهد القديم المرعبة . ماذا تسمونه عندكم ... التوراة ... نعم توراة . لقد صدق من قال: ضع اليهودى فى البئر الخربة أو ألق به فى غيابة الجب يخرج لك صيرفاً أو وزير مالية .. وهذا أبوك يصير رغم أنفه تاجراً عظيما فى رى دى لابيه[1] فضحك دوجلاس كراوس ملء شدقيه وقال : أو كما قال هذا الآخر : « كتب الغنى على رجالهم ، كما كتب الزنا على نسائهم » لذا لا تجدينى متعجلا أمر الزواج

أبى يتكلم :

وكانت هذه التأملات وحدها وسيلة إنقاذي إلى أن بلغت الحدود بين ترنسفال و « جيرمان ويست أفريقا » وهناك تفتيش دقيق على الناس بصفة خاصة . فان كثيراً من عمال المناجم يفرون بفتات الموائد أو تراب إبار الذهب فيقبض عليهم ويتنكل بهم ... ولما بلغت الحدود كنت فى حال يرثى لها من الجوع والتمزيق والضعف . ولم يكن يصلب عودى إلا أمل الفرار بثروتى . وكنت من التجرد بحيث أنف حرس الحدود أن ينظر إلى بدنى النحيف العارى . فمثلت دور السائل واستجديت القوت . ولما سئلت عن عمامتى قلت جرح متعفن وهممت بفك أربطتى فعافوا النظر إليها وركلني أقسامهم قلباً خارج الحدود ليقصى منظرى عن عينه ، فحمدت الله وساق هذا الكريم الذى رفسنى . وقطعت أرض المستعمرة الألمانية إلى أن بلغت مينا وندهوك بعد أن اخترقت صحراء كلاهاري ونصيباً كبيراً من بتشوانا لاند. واشتغلت في وندهوك سائقاً لسيارة تاجر غنى من جروت فونتين . وتعودت أن أخفى ذخيرتى فى مخزن أدوات التصليح وأنام بجوارها فى الجاراج فلا تغيب عنها عينى نهاراً ولا أفارقها ليلا . حتى استعدت صحتى وجمعت مالا يكفينى للسفر إلى أمستردام مقر تجارة تلك التحف الفذة وموطن مصانع الماس وتجهيزه ، وعلى ظهر الباخرة جمعت مالا وطاب من المعلومات النادرة عن تقدير الأحجار وقصها ، وطرائق عرضها وأسماء الخبراء فيها وكيفية الاتصال بالخبراء والوسطاء ورجال القانون المتخصصين لمسائل البيع والشراء وحيل السماسرة والتجار ، فى استبدال الصفقات أو تزييفها وتفويت الفوائد على أربابها وألوان الدسائس والمكايد و « المقالب » التى يتقنها الذباب والديدان البشرية التى تحوم حول الثروة

(١) أشهر شارع لتجارة الجواهر فى باريس

لتلوثها أو تخطفها أو تمص دماء أصحابها . لقد كانت الباخرة عُشّ زنانير ، ووكر عقارب . وقد صوروا لى أسواق أمستردام كأنها مخابىء لصوص ومكامن قطاع الطرق ، ووالله حسناً فعلوا . وكنت أسمع طول النهار وطرفاً من الليل ثم أقضى الشطر الأخير فى التدوين والتقييد حتى لا أنسى الأسماء والصفات والعنوانات . وكنت أصحب الرجل يوماً أو يومين أو ثلاثة حتى أعتصره عصراً فلا أترك فى جوفه سراً ولا خبراً إلا وقد أفشاه لى وأطلعنى عليه أو حذرني منه وهو يعلم أننى لا أسأل إلا مستطلعاً ولا أسمع إلا متلذذاً ولا مصلحة لى فى شىء وإنه لو علم لى نفعاً لضن بوزن الذرة من كلماته

وبلغت أمستردام وكنت أربط الكنز على بطنى حيناً وأحمله فى حقيبة قديمة بالية مع صحف قديمة أو فضلات الطعام ، وجست خلال البلد والمصانع و «بورصة الماس» وأخيراً أخبرت محامياً متواضعاً أننى وكيل نقابة تملك منجماً وأنهم عثروا بماسة كبرى يريدون بيعها . فلما جمعنى ببعض التجار ووصفت لهم الحجر الموعود وصف خبير كادوا يجنون من الذهول والدهشة وقدروا ثمنه بثلاثة ملايين من الجنيهات الأسترلينية . ثم شكوا فى الخبر ، وأنذرونى بأنهم لا يدفعون شيئاً من الثمن مقدماً خشية أن أكون محتالا . فطمأنتهم بأن الحجر قد نقل فعلا من المنجم وسيصل إلى البلد بعد بضعة أيام فتبادلوا نظرات العجب والريبة . وفى اليوم الذى اخترته لبيع الحجر بكرت إلى المحامى وأفضيت إليه بالسر فى الطريق فقصدنا إلى مقر الشرطة واتخذنا حرساً واجتمعنا بالتجار ... وأظهرت الأمانة التى حملتها تسعة أشهر ، كأنها جنين آن أوان ولادته

ووزنت وقدرت بعد أن فحصت . وكتب عقد البيع وطلبت إلى رئيس الشرطة أن ينقل الصكوك والعقد وتحويل المال إلى خزانة باسمى فى أحد المصارف وخرجت من مجلس العقد لا أحمل إلا عشرين فلورين اقترضتها من المحامى ... ولكن بنك أمستردام فان هولاندير سيفان كان يحتفظ لى بمليونين وثمانمائة ألف جنيه أسترلينى »

وضحك دوجلاس كراوس ضحكة عالية وضم أنطونيا إلى صدره وقال لها : ما رأيك ؟ هذه قصة ثروتنا . وقد مات أبى بعد أن تضاعف ماله وعاد إلى جنوب أفريقا فوجد منجم النقابة التى تعقبته وصاحبه خراباً وعلم بأنهم أفنى بعضهم بعضاً قتلا ، وبحث عن ورثة صاحبه الأمين الذى قتل بجواره وهو يفر ، فاهتدى إلى عمة له ، عجوز فى بور كشير فأغدق عليها وأغناها . وتعرف إلى تاجر وندهوك الذى استخدمه سائقاً لسيارته . وأخيراً أوصى لى بالمال الذى سهل لى حبك وضمك إلى صدرى هكذا !

فتنهدت أنطونيا من أعماق قلبها وقالت :

ولكن نجفة القارة المظلمة هذه . . .

فقال دوجلاس كراوس : نجفة القارة المظلمة نقصت فى عملية القطع بقدر ثلث وزنها . ولما كانت مستطيلة الشكل ، فقد خرطت على صورة الكمثرى وصار لها ألف وأربعمائة وتسعون وجهاً ، مساحة الوجه ثلاثة مليمترات مربعة ؛ وصارت تشع نوراً لا يقل عن خمسمائة ألف شمعة ، وقُدِّر القيراط فيها بثلثمائة استرلينى ووزنها عشرة آلاف

قيراط . وقد قبض والدى ثلاثة ملايين من الجنيهات ، إلا مائتى ألف جنيه أنفقت فى عملية القطع ورسوم التأمين والجمرك وأتعاب المحامين فى تحرير العقود ، والنسبة المئوية للخبراء والوسطاء والمصورين. ولكن نقابة الماس التى اشترت الجوهرة فى امستردام قدرت لها ثمناً للسوق أربعة ملايين وأعلنت عنها فى جريدة « دياموند ورلد » التى تصدر مرة فى كل ثلاثة أشهر فكان لها عدد خاص ممتاز شمل تاريخ هيرماس كراوس وجوهرته القديمة من خيال المحررين. فكان أول من تقدم للشراء الكولونيل هوب فان زيلاند الهولاندى صاحب معامل الجبن والكاكاو فى روتردام ، وكان قد ورث عن أبيه القبطان البحرى سمارك فان زيلاند عشرين مليون جنيه ربحها من مستعمرات هولاندا فى أندنوسيا . وكان الوالد متعهد توريد الأغذية لألمانيا فى حرب السبعين وأول من اخترع الجبن الفلمنك الأحمر ، وأدخل على الروكفور طريقة « التعفن الخالى من الجراثيم » فنمت أرباحه فى عام واحد ثلاثة ملايين ومات الشيخ فان زيلاند فى حديقة قصره فى سكفنجن على شاطئ زايدر زى محاطاً بأغرب أنواع الأزهار ولا سيما الخزامى الزرقاء التى تخاطف بذورها ملوك الأرض . وتزوج ابنه الكولونيل هوب فان زيلاند من الأميرة جوهان باتنبرج فأراد أن يتقرب إليها بإهداء تلك الجوهرة وسدد ثمنها على ثلاثة أقساط متساوية فى مدى سنتين

فقالت انطونيا : ما أسعد هذه المرأة ! ولكن بالله قل لى كيف تحمل سيدة عبء هذه الجوهرة التى تزن أكثر من كيلو جرام ؟

فضحك دوجلاس كراوس وقال : إنها لا تحمل ولا تصاغ ، ولكن تحفظ فى القصور تحفة تزار وتعرض للأنظار ويتهالك على مشاهدتها الفقراء . ولكن لا تظني السعادة مقرونة بمثل هذا الثراء ؛ فان تحفة القارة المظلمة جلبت الهلاك والدمار على أسرة فان زيلاند فقضت الأميرة نحبها ، وانتحر الكولونيل وكادت المعامل تمحى من الوجود لولا تدخل الحكومة وتأسيس شركة مساهمة حلت محل الورثة وبيعت الجوهرة فيما بيع من مخلفات هذا البيت الكريم ، فاشتراها ولى عهد انجلترا الأمير هنرى نجل ادوارد السابع وكان « برنس دى غال » ولم يزد ، وقد انتوى إهداءها لخطيبته التى صارت بعد وفاته ملكة انجلترا بقرانها بأخيه جورج الخامس . فقد أصيب بالحمى المالطية وكان مصاحباً للأسطول في البحر الابيض ، فانقلبت أفراح الأسرة أتراحاً . ولم يتنبه أحد إلى أن تحفة القارة المظلمة هى التى حملت البلاء إلى هؤلاء الأمجاد الغافلين عن شرها

وأودعت الجوهرة حيناً في قصر سندرنجهام فتصدع أحد أركانه فنقلت إلى خزائن « بنك أوف انجلند » واشتغل الوسطاء بالترويج لها والدعاية لبيعها حتى تمكنوا من إقناع ملك البرتغال بشرائها ... فاشتراها ولم يمض على دخولها لشبونة عام حتى قتل الملك والملكة وابنتهما فى شوارع المدينة بانفجار قنبلة فوضوي ، ولم ينج من المذبحة إلا عمانوئيل الذى توّج ملكا يتيما وخلع وقضى نحبه فى مقتبل الشباب منفياً فى بلاد الانجليز . وكان صحفى إنجليزى اسمه ماكسويل يتتبع خطوات « النجفة » فسرد تاريخها بفطنة وإحكام فى سلسلة مقالات فى جريدة

ديلى ميل ، فسارع وسطاء الماس فى بورصة باريس ونيويورك إلى إسكاته بعشرين ألف جنيه ، فترك التحرير والتحبير وعاش سعيداً فى قصر منيف فى مقاطعة كنت . وبذلوا له عشرة آلاف أخرى ليكذب نفسه عن شؤم الجوهرة ، فأبى وقنع بما ربح

وكان مهراجا أندور فى الهند من أرباب اللابين أصابه جنون التبذير ، وركبه شيطان الأهواء ، فاشتراها وأهداها إلى محظية هندية اسمها ممتاز بيجوم فعشقها راجا آخر وحاول إغواءها ففشل فشرع فى خطفها فلم يفلح فكاد لها كيداً ذريعاً تمكن به من قتلها فى كمين

فثار مهراجا أندور لمحبوبته باغتيال راجا خارستان وكان عقابه الخلع والتشريد والنفى وانتقلت الجوهرة من الهند إلى الشاه محمد على فى طهران فاشتراها .. وضمها إلى جواهر أسرة كاشغار ووضعها فى خزانة فى قاعة عرش الطاووس حيث البساط المصنوع على نمط بساط كسرى مرصعاً بالجواهر ، وممدوداً تحت أقدام العرش . ولعب شيطان الغرور بعقل الشاه فضاع ملكه وراح منفياً ومات فقيراً مقصيا فى مدينة أوديسا . وورثه نجله الشاه احمد . عرض الشاه محمد على فى بطرسبرج جوهرته على قيصرة روسيا فاشترتها وهي لا تعلم من أمرها شيئاً . وكارثة آل رومانوف لا تزال ماثلة بالاذهان . فقالت أنطونيا :

— والآن أين تلك النجفة المنحوسة ؟

— أرأيت أن النجفة لم تحمل لأحد سعوداً ، غير أبى وما كسوبل الصحفي وللوسطاء الذين تدخلوا فى بيعها ؟ ولكن من يدرى لعل أبى أخذ نصيبه بما أصابه من شج فى الرأس ومعاناة الآلام فى طريقه من المنجم إلى امستردام . تسألين أين هي الآن ؟ إنها فى نيويورك فى ملك مسز هاملتون درموند ملكة الفولاذ وقد جعلت عليها أحراساً من الأشداء المسلحين بالخناجر والمسدسات وجعلتهم على ستة فرق تسهر كل فرقة أربع ساعات فى الليل والنهار ، وأحاطت المكان بأسلاك الكهرباء الموصولة بمراكز الشرطة . وتدفع عنها عشرين ألف جنيه فى العام تأميناً ونفقة للحارسين

— إنها بلا ريب مجنونة فانها تفقد مثل ثمنها فى بضع سنين إن بقي لها المال وبقيت على قيد الحياة

— كلا ؛ إنها جد حريصة فقد احتالت حتى جعلتها تدر إيراداً يربو على نفقات حراستها بأن فرضت جعلا قدره عشرة دولارات على كل من يريد مشاهدتها ، فلا يقل عدد الزائرين عن خمسين مخبولا فى النهار الواحد . وأظن أن هذه الطريقة منعت نحس الجوهرة . كان أبى هيرمان كراوس يقول : الركود مجلبة الدمار ، والحركة وسيلة البركة : ويقول : الربان ليفى فى شرح التلمود : « يد البطالة نجسة » وأنا أقول : الجوهرة التى لا تدر خيراً على صاحبها تجلب له الشؤم والخراب . وهذه الأمريكية الماكرة عرفت سر نجفة القارة المظلمة كما عرفت أنا سرك

فقالت أنطونيا والنوم يداعب عينيها ، فقد أقبل الليل وأضاءت أنوار المدينة وانعكست أشعتها على البحيرة الفاتنة :

— أنا ؟ إنك مازح ! ماذا أدر عليك ؟

— تلك القُبَل الشهية هى أرباحى

— ورأس المال ؟

— هو حبك الدائم واستمتاعى بك الذى لا ينقطع . هيا بنا فقد آن أوان اقتطاف الثمار

محمد لطفى جمعة

عواد كريمون

للشاعر الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

يشاهد مصنع للآلات الموسيقية فى القرن الثامن عشر وفى نهايته باب كبير من الزجاج يطل على طريق فى المدينة وترى منه المنازل ، وتشاهد الكمان والفيولونسيل والكونترباس وغيرها من الآلات الوترية مبعثرة داخل المصنع ، وفى الميسرة منضدة كبيرة ظاهرة للعيان وفي الميمنة كرسى كبير وبجانبه منضدة صغيرة ، وفى نهاية المصنع على اليمين حامل لكراسات القطع الموسيقية وللمصنع بابان من الجانبين .

المنظر الأول

(الرئيس فيرارى — جانينا)

فيرارى — (وقد تملكته نشوة خفيفة من النبيذ)

كلا! لقد آليت ياجانينا إلية شريف لا يحنث ، وسأحترم قسمى وأتمسك به كما يسميني الناس تاديبو فيرارى أستاذ وصاحب مصنع الآلات الموسيقية بكريمون وستديك أرباب هذه الصناعة وحامل لوائها فى كل موكب ومحفل وستتزوجين بهذه الطريقة

جانينا — ولكنى يا أبتاه..

فيرارى — إننى أتصرف بكل حكمة وبصيرة . ولقد تمنى شيخنا بودستا الذى توفى حديثاً ومن أطلب له من الله الرحمة والرضوان أن تستمر وتخلد شهرة الآلات التى تصدر من مدينتنا الشهيرة القديمة ، فأوصي بسلسلته الذهبية للصانع الماهر الذى يصنع أحسن كمان فى المدينة ، وسنفتتح المسابقة ويحكم فيها اليوم . وإنى وإن كنت صانعاً بسيطاً أقتدى به إذ وعدت فى اجتماع العوادين أن أعطى ابنتى ومصنعى لمن يحرز هذه السلسلة . وهذا ما تم عليه الاتفاق وبت فيه ، فلافائدة إذن فى الجدال والنقاش ! !

جانينا — لقد عرفتك بأنى أفضل فرداً

فيرارى — ساندرو ! ستنسينه وقد أنبأته

جانينا — وقصارى القول إذا كان هذا الفنان المجهول شاباً خبيثاً وليس كفؤاً لك فما العمل ؟

فيرارى — إن الصانع الماهر لا يكون فى الغالب إلا شريفاً

تعريف بالقصة

فرنسوا كوبيه نابغة من شعراء وروائى الفرنسيين من نوع الرومانتيك ولد بباريس سنة ١٨٤٢ ، وكفاه فخراً أن يقال له مؤلف « جواب الآفاق » وهى من معجزات نظمه ودرة يتيمة فى نوعها لم يوفق أحد من الشعراء أن يأتى بمثالها وهى تفيض بالعواطف الناجحة والأخلاق السامية ودقيق الاشارات والرشاقة المتناهية والرقة النادرة و « فى سبيل التاج » وهى رواية تاريخية سحرت النفوس ببلاغتها ومتانة قريضها وما اشتملت عليه من النفحات العلوية و « سيفير وتوريللى » و « عواد كريمون » هذه وله من الدواوين الشعرية والروايات التمثيلية كثير لا يتسع المقام لسرده

ومرويهر شاعرنا هذا فى أغلب أنواع الشعر لاسيما المراثى والملاحم وكان من الشعراء المحققين وحاز القدح المعلى فى الشعر القصصى المألوف وأنواع الشعر المبتكرة فى بابها ووصف المناظر الطبيعية

وكان مقتدراً فى وصف أخلاق الفرنسيين وعاداتهم وصفاً صادقاً رقيقاً شجياً يهز القلوب طرباً حيثما يصف البؤس المتواصل والفقر المدقع والفضائل المجهولة . فلذلك أسموه « شاعر المساكين » لأنه فى هذه الطبقة الصغيرة الحقيرة أسعده القريض بنفحات مدهشات قلدته زعامة هذا النوع الذى ابتكره

وقد توفى بباريس سنة ١٩٠٨ واحتفلوا بجنازته احتفالا شائقاً حتى يليق بمقامه الرفيع وبكاه الفريق الفرنسى قبل الشعراء

جانينا — ... الكسول الذى لا يهتم مطلقاً بمستقبله ؟

فيراري — إنه ينقد أجراً كبيراً فيمكنه أن يعمل أقل من غيره

جانينا — ... فظ غليظ القلب يضرب النساء ؟ وهذا النوع من الرجال موجود

فيراري — إذا لم يجد راحة فى داره فانى أبرر أذاه

جانينا — ... وإن كان سكيراً يثقل نبيذ الأحد رأسه ؟

فيراري — وماذا تكون حالى يا بنيتى يوم الاثنين ؟ فلنحترم هواة كروم تؤتى أكلها فى تشرين الأول ! والموسيقى الماهر لا يكون قنوعاً ولا يجوز أن نكذب الأمثال

جانينا — وفى النهاية إذا كان غريب الأطوار ورفض الزواج ؟ ... أواه

فيراري — إن ذاك المضحك يكون حقاً صعب المراس . ولكن حسنة النية مثلك يا جانينا يلزمها أن تكون على بصيرة ، فان هذا النوع من الرجال لا نصادفه كل يوم . وأن ألفين من الريالات اللومباردية لمبلغ لا يستهان به وما هو إلا مهرك . وأنا التلميذ المحبوب لستراديفاريوس قد أقسمت ... فلا فائدة من الخوض فى هذا الموضوع . ولقد نالت منى السنون ولا دواء ينجع فى الكبر وأصبحت أنشد خلفاً لى يساعدنى وسينال الفائز ابنتى ومحلى

جانينا — وفضلا عن ذلك يا أبتى العزيز ...

فيراري — حسبك أسباباً تبديها !

جانينا — وإذا كان الظافر — وإنى لأضحك حينما أحلم بذلك — وإذا كان تلميذك الصغير فيليبو ؟

فيراري — فيليبو ؟

جانينا — وإن حاز الجائزة ؟

فيراري — إننى لن أدهش كثيراً لوقع هذا الخبر ، وإذا نال سلسلة بودستا فستتزوجين فيليبو فى الأسبوع القادم

جانينا — أتزوج فيليبو !

فيراري — ولِمَ لا ؟

جانينا — الأحدب !

فيراري — ان نظرى لحادى يبصر حقيقة الأشياء ، ولكن هل ازدوجت عاهته ؟ فلا تضطربى من ذلك ولا تجزعى فكثيراً ما تظهر لى تلك الصفة حينما يضطرب نظرى وأرى الواحد اثنين — وقصارى القول سيكون لك زوجاً

جانينا — اللهم رحمتك !

فيراري — أليس فيليبو من خير الشبان ؟ أما هو طيب مخلص شريف ؟ ... إن الكآبة والحزن يرتسمان على وجهه وهو أحدب ، ولكنه فنان كبير وموسيقى مثل پالسترينا . ولا أنسى حفلة الطرب الصغيرة التى أقامها لنا — مع أنى نقاد قاس — ولقد أصغيت إليه وأنا أمتع الطرف بالنظر إلى قدح من نبيذ استى المعتق فكانت الأوتار تئن تحت قوسه ، وكان عزفه حافلاً بأنواع الآلام فتاناً ساحراً ، وقد انحدرت من عينى دمعتان كبيرتان وحاولت أن أكفكفهما فلم أفلح ، ثم سقطتا فى الكأس ، وهذه أول مرة مزجت فيها النبيذ بالماء

جانينا — إننى أقدر مثلك فيليبو يا أبتى . إننى أرثى له ولم آل جهداً فى تبديد شجونه والعطف عليه حتى ينسى همومه وفقره وعاهته من يوم مجيئه إلى بابنا ليتسول . فهل أستطيع أن أحبه ؟

فيراري — تا ، را ، تا ، تا

إذا كنت لا تظنين أنك لم تعارضى قط بأشد من هذه المعارضة فلنقف عند هذه النقطة فانى أريد أن أزور كهفى ويلزمنى أن أعد لهذا اليوم بعض القناني التى تعاقبت عليها السنون فغطتها بغبارها ونسيج عناكبها ...

جانينا — وإذا كنت أذهب بدلاً منك ... فان السلم وعر وخطر تزل فيه القدم وإنى أسرع منك ...

فيراري — لا ألاحظ تلك الصعوبة إلا فى الصعود . فدعينى أذهب بنفسى فان أعظم السرور فى انتخاب النبيذ قبل شربه

(ثم يخرج من جهة اليسار)

المنظر الثانى

جانينا — صاندرو

كانت جانينا وحدها لحظة فتنهدت ، ثم يدخل صاندرو من اليسار حاملاً كماناً فى صندوقها الأسود ثم يضعها فوق المنضدة

صاندرو (وهو ممسك بيدى جانينا) ما وراءك من الأخبار ؟ هل لا يزال الرئيس مصمماً ألا يزوجك إلا أمهر الصناع ؟

جانينا — بل مستمر فى عناده أكثر من قبل

صاندرو — ما هذا الجنون الفظيع ! هل علم منك درجة حبك له وإنى إذا أخفقت مت وهلكت ؟ ماذا أجاب ؟

جانينا — أن أنساك

صاندرو — القاسى !

جانينا — (مشيرة إلى صندوق الكمان) هل أتممت صفوة أعمالك ؟

صاندرو — هل أكون أكسل من الأفعى ؟ إننى كنت دائماً على استعداد ، لأن أملى الأخير معلق بها . واليوم يبت الخبراء فى حظى إن كان سعيداً أو منكوداً

جانينا — هل أنت مطمئن وواثق من عملك ؟

صاندرو — إننى أجيد صناعتى وقد صنعت الكمان حسب قواعد الفن فى أوكتافاتها الأربعة المضبوطة ، نقية فى أصواتها الحادة ، عميقة فى أصواتها الغليظة ؛ وقد بذلت فى عملها جميع ما فى وسعى وأجدت انتخاب خشبها وأوتارها ودهانها وأظن أن هذه الآلة لجديرة بفنان عظيم

جانينا — (بلهجة فرح) أتؤمل أن تنال الجائزة ؟

صاندور — ربما ...

جانينا — ولكنك ستنال الجائزة ! فلم يخالجك الشك ؟ أى منافس عظيم تخشاه ؟ إن أبى كما علمت أعظم فنان فى كريمون ولقد تعلمت عنده ، وإنى أود أن تنال الجائزة

صاندرو — إننى لا أخشى أى منافس خرج من مصنع آخر

جانينا — ممن تخاف إذن ؟

صاندرو — إن الذى أخشاه فى مصنعنا

جانينا — وكيف يكون فى مصنعنا ؟

صاندرو — نعم وما هو إلا الأحدب ! لعن الله اليوم الذى لاقيته فيه !

جانينا — هل دخل فيلبو المنافسة ؟

صاندرو — إن الأفعوان الصغير قد جهر بذلك أمس أمام أبيك

جانينا — أبى الذى كان يقول فى بعض

الأحيان مازحاً بأنه إذا نال الجائزة فانى أزوجه ابنتى

ساندرو — إنه يظنك خالية القلب فلذلك كان منقاداً للأمل

جانينا — إننى لا يخالجنى الشك من ناحية ذاك الفتى المسكين . إنه يطمح إلى السلسلة الذهبية ولقب الرياسة ، وأننا نسمح له أن يطمع إلى هذه الأمور ولكنه يكون مغروراً إذا زعم أنه يطمع فى زواجى

ساندرو — ولا أكتم عنك أنه إذا خرج من الامتحان ظافراً فانه يسبب لى آلاماً لم أرها فى حياتى وأشعر حين ذاك بعاطفة ممقوتة

جانينا — وماذا تكون ؟

ساندرو — الحسد !

جانينا — تكون حسوداً يا ساندرو ! هذا من المستحيل !

ساندرو — نعم نعم ، لأنى أعرف عمله وتقلقنى الغيرة منه ، وسيعرف الناس فضله مثلما عرفته — إننى لا أنسى تلك الليلة إذ كنت جالساً إلى كوتى وكنت أفكر فيك تحت سماء الصيف الصافية وكان فى الحديقة عندليب يصدح فى سواد الليل فتصعد أنغامه الساحرة إلى عنان الزرقاء المتألقة بكواكبها ، فسمعت على حين غفلة فى الظلام غناء آخر نغما فتاناً يشجى القلوب أكثر من غناء ذاك البلبل ، ولمحت الأحدب فى غرفته أمام حاملة كراسات الموسيقى وقوسه فى يده وكأنه يخرج أنغاماً تعادل الأصوات الانسانية وهى تعبر عن حب مبرح امتزج بالألم ولا يقل فى حلاوته ورقته عن ذاك الطير الصادح . وتبادل الصوتان فى الليل البهيم الأنغام البلورية وكنت أصغى إليهما ؛ وبعد دقيقة اختلط على الأمر فلم أدر أى الصوتين أفضل من الآخر : صوت البلبل أم صوت الكمان

جانينا — هل يحزنك بهذا المقدار نجاح منافسى؟

ساندرو — أواه ! إنها لعاطفة لا تليق بفنان ، ولكنه إذا وجد فى أبيك معيناً ومساعداً ، أو أصبح ظافراً ...؟

جانينا — إننى لا أحب إلا إياك وأعدك بأننى سأكون لك وإلا فإنى أرفض زواج غيرك

ساندرو — أتقولين حقاً ؟

جانينا — حقاً وصدقاً !

ساندرو — يالله ! ما أطيبك !

جانينا — وهذه يدى أضعها فى يدك ضماناً لقسمى

ساندرو (يقبل يدها) — أشكر لك !

(يسمع فى الخارج لغط)

جانينا — ما هذا اللغو ؟

المنظر الثالث

فيليبو — ساندرو — جانينا

(يدخل فيليبو مندفعاً ويقفل الباب بشدة وهو يلهث من الاعياء)

فيليبو — أف لهؤلاء الأوغاد الصغار ! لقد ظننت أنهم سيلحقون بى

جانينا — ما الذى دهاك يا فيليبو ؟ وما الذى تخشاه ؟ ومن يطاردك ؟

فيليبو — صغار الأوباش الاشقياء وقد رجمونى بالحصى وكانوا يريدون قتلى

جانينا — يقتلونك أنت ؟

فيليبو (وهو يجس رأسه بيده) — والدليل على ذلك أننى أشعر بجرح فى جبهتى

ساندرو — إن رأسك يسيل دما !

جانينا — على بالماء ... أسرعوا !

(ثم ذهبت لاحضار طشت وأبريق)

ساندرو — خبرنا كيف حصل لك ذلك

فيليبو — إن المسألة لى غاية البساطة ، فقد كانوا خمسة عشر أو عشرين وهم خليط من الصعاليك والتلاميذ وقد أحاطوا بكلب وطفقوا يرجمونه بجانب سور وقد أعيا المسكين ولم يستطع الدفاع ولا الحراك إذ كانت رجله مكسورة بل اكتفى بالتكشير عن أنيابه . ولما شاهدت تعذيب هذا الحيوان أشفقت عليه وتألمت له لأنه مسكين مثلى . فتوسطتهم وسألتهم أن يرحموه فاستشاطوا غضباً وتركوا الحيوان وتألبوا على رجمى فمدوت وهم يطاردوننى ، ولولا هربى فى الأزقة لقتلونى والحمد لله قد نجيت الكلب الأعرج المسكين

(ثم ارتمى على الكرسى خائر القوى)

جانينا (وهى تضع منديلها المبلل على جبينه) — ما أشقى هؤلاء المتشردين إذ لم يرأفوا منهم ، يالك من مسكين !

فيليبو (على حدة) — يدها فوق جبينى ؟ يا ما أحلاها !

جانينا — هل حسنت حالك ؟

فيليبو (ينهض ويتكلم بصوت متأثر) — شكراً لك . لا أشعر بشىء مطلقاً

ساندرو (على حدة) — إن هذا التأثر لكثير جداً حيال شكر ! ولا أخطئ أنه يحبها

المنظر الرابع

من سبق ذكرهم ومعهم فيرارى

فيرارى (وقد زادت نشوته وبيده سلة لحل الفنانى)

— يا للغرابة ! لقد مضى على أكثر من عشرين سنة وأنا أصف صنى النبيذ فى مكان مقفل فترون الطابع الأحمر فى اليمنة والأخضر فى اليسرة ، ولم يطرق أحد هذا المكان وما فتئ مفتاحه فى جيبى وقد لاحظت أن ابنتى قد غيرت مواضعها فهل فسدت أخلاق القنانى أو أننى لا أميز يمينى من شمالى

جانينا — أبتاه ...

فيرارى — ها أنت يابنيتى وأنا أبحث عنك إذ بعد قليل حينما يصرخ الكمان ونعرف من سيكون لك زوجاً سأدعو الزملاء للعشاء فهيا جيانى بشعرى الأبيض المستعار وكسوتى الفاخرة فإن الانسان إن أهمل زينته نقص احترامه . هيا بنا !

(ثم يخرج من اليمنة وتتبعه جانينا)

(يتبع) محمد كامل مهجاج

سندباد عصرى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

الانسانية فى شتى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين فوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً

ثمن زوجة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

جلس ينظر إلى صورته فى المرآة الكبيرة ويتابع بعينيه يد الحلاق وهى تقص شعره بخفة ومهارة ، وكانت تبدو عليه آى الهدوء والغبطة كما ينبغى لشاب مثله فى أسبوعه الثالث من شهر العسل

ولاعجب فشهر العسل فى حياة الأزواج كالشباب الناضر فى الآجال المعمرة . وقد حبته الطبيعة بألذ المتع ودفعته مهراً لحياة الزوجية التى تستأديها الذكور من جميع الأنواع . وكان حضرة الفاضل حمدى أفندى المهندس واحداً من ذكور أسمى الأنواع كلها ، وقد تزوج من ابنة أحد زملائه وأساتذته المهندسين ، وهى فتاة جميلة مهذبة سمع عنها ورأى فيها ما علقه بها ورغبه فيها ، وهو الآن يستمتع بلذة اللذاذات التى تجزى بها الطبيعة الصادعين بأمرها الداخلين فى طاعتها ...

ولاحظ المهندس فى جلسته الهادئة المغتبطة — أن « الأوسطى » لم يكن كعادته ذلك اليوم . رآه واجماً والعهد به ضحوكا ، ووجده صامتاً والعادة أن يكون ثرثاراً لا يسكن له لسان ، فعجب لشأنه ؛ ولكنه لم تؤاته الشجاعة على سؤاله عن حاله ، ولاذ بالفرصة الجميلة التى كفته مشقة ثرثرته وشقشقة لسانه ، وتغاضى عن شذوذه حتى انتهى من عمله فقام واقفاً ، ولم ير حرجاً فى إبداء ملاحظاته فسأله قائلا وهو يعقد رباط رقبته :

« مالك صامتاً واجماً كأنك لاتجد ما تقوله ؟ »

وبدا على الرجل الارتياح لمفاتحة المهندس له بذلك السؤال وكان يرغب فى الكلام حقاً ، وتلح عليه الرغبة إلحاحاً شديداً ، ولكنه لايدرى كيف يلج الموضوع ، ورأى زبونه يكاد ينتهى من ارتداء ملابسه فأشفق من ضياع الفرصة وقال :

« الحق يا سيدي أن لدى كلمة أريد أن أقولها ولكن ... »

وتوقف عن الحديث فازداد عجب الشاب وسأله باهتمام :

« ولكن ما ذا ؟ »

« إن بعض الظن إثم ، وكثيراً ما يخطئ الانسان فى تقديره . والحق أنى أدمت التفكير طويلا وقلبت المسألة على جميع وجوهها فرأيت أن الواجب يقضى علىّ بمصارحتك بظنونى مهما كانت الاحتمالات والعواقب ... »

وكان الشاب قد انتهى من عقد رباط رقبته وارتداء جاكتته وطربوشه فدنا من الحلاق وحدجه بنظرة اهتمام وانشغال وقال :

« إن كنت ترى حقاً أن الواجب يقضي عليك بمصارحتى فما معنى التردد والتلعثم ؟ »

فتنهد الرجل وقال :

« حسن يا سيدى ... إعلم أني لاحظت أموراً ... »

« ... ... ؟ »

« منذ أسبوعين أرى شاباً يتردد على العمارة التى تسكن فيها كل صباح بعد الساعة الثامنة مباشرة ... »

فزوي الرجل ما بين حاجبيه وقال باستهانة :

« نعم ... ؟ »

« لقد لفت نظرى بهيئته ومواظبته فشغلت فراغ الصباح بمراقبته ولاحظت أنه يحضر من شارع عاصم حوالى الساعة السابعة ويأخذ مكانه فى مقهى النجمة ، حتى إذا غادرت البيت وذهبت إلى الوزارة يدفع ثمن قهوته ويترك المقهى إلى العمارة رأساً ... »

وكان المهندس — على شبابه — رزيناً ثابتاً يمنجى أمين من الرعونة والطيش ، فمض على شفته السفلى كعادته كلما ارتبك أو أخذ ، وكأنما أراد أن يغالب القلق الزاحف عليه فسأله بلهجة الغاضب

« ما الذى تعنى ؟ »

فاصفر وجه الحلاق وندم على خوض هذا الحديث الأليم ولكنه لم ير بداً من الاستمرار فقال: « إنى أرجو أن أكون مخطئاً يا سيدى ، بل إنى لا أتمنى على الله أكثر من أن يكشف عن وجه الخطأ فى جميع ظنونى ، ولقد ترددت طويلاً قبل أن أبثك هذا الحديث، ولكنى رأيت أن المصارحة مع ما تنذر به أفضل عندى من التستر على العيب مع السلامة ... وقد كان مما أيقظ الشك فى نفسي أني رأيته مرات يلاحظك خلسة — وأنت سائر فى طريقك — ويرمقك بنظرات لم يرتح إليها قلبى حتى إذا غيبك منحنى الطريق قام بسرعة وانسل إلى داخل العمارة ... »

« ألم تره خارجاً منها ؟ »

« رأيته مرات وقد لبث فى الداخل ساعتين أو يزيد ... »

« ما شكله ؟ »

« هو شاب فى مقتبل العمر ، حسن الهندام ، نخنث الهيئة ، لولا تسكعه فى الصباح لقلت انه طالب ... »

ورأى الحلاق المهندس واجماً صامتاً ، تصرح سرائره بما يقهر نفسه من الاضطراب والقلق فقال بتألم : « لا تأخذ بظنى ياسيدى واسلك سبيل الحكماء فتحقق الأمر بنفسك ، والحق أنى غير آسف على قول ماقلت ولكنى ألعن الظروف »

فسأله المهندس وكأنه لم يسمع قوله :

« هل حضر هذا الصباح كعادته ؟ »

« نعم ياسيدي »

ألا ينقطع عن الحضور أحياناً ؟ »

« يوم الجمعة »

فمض الشاب مرة أخرى على شفته ولم يزد على أن قال وهو يغادر الصالون

« إنى أشكر لك مروءتك وأرجو أن تفتح عينيك حتى أعود إليك صباح الغد »

وكان البيت قريباً على قيد خطوات ولكنه لم يشخص إليه — مع أن الوقت كان ظهراً — وأحس فى نفسه رغبة طاغية فى المشى، فهام على وجهه بغير هدف معين

كان حمدى شاباً فى الثلاثين من عمره ، يلفت الأنظار لضآلة حجمه ورقة أعضائه وشحوب لونه، ولكن كانت تلتمع فى عينيه نظرة تدل على حدة الذكاء ، وكانت ذقنه تلتوى التواءة يعرف بها ذوو الإرادات الحديدية ، وكان أخص ما يعرف

به الهدوء والرزانة والبرود فلا يذكر أحد من معارفه أنه رآه مرة منفعلاً أو متهيجاً لحزن أو لفرح، ولكن لم يكن طبعه هذا ضعفاً أو جبناً فإنه يغضب إذا انبنى له الغضب ولكن على طريقته فى الغضب ، فلا هياج ولا سب ولا شجار ولكن عقاب صارم أو انتقام مهول ، هكذا يتقدم فى حياته « كوابور الزلط » بطيئاً رصيناً ولكنه لا يقاوم ولا يبقى ولا يذر . . .

وقد قال لنفسه وهو يسير على غير هدى : يلمح الرجل إلى خيانة زوجية ، خيانة زوجية فى شهر العسل ! لا شك أنها أول خيانة من نوعها ، هى كالإجهاض سواء بسواء الذى يهلك الجنين قبل أن يكتمل ... كيف يستطيع أن يصدق هذا ... بل كيف يمكن وقوعه ؟ كيف استطاع ذلك الشاب أن يشق طريقاً إلى بيت عرسه ؟ هل كان يعرف زوجه من قبل أن يعرفها هو ؟ مهما كان الواقع فهو أمر بعيد عن التصديق ... وذكر حياته الزوجية القصيرة فذكر بها سعادة وصفاء ومتعاً لا تحصى ولا توصف ، فلم يشك فى أنه سيكشف فى غده خطأ مضحكاً لن ينفك يضحك كلما ذكره ما امتد به العمر . . .

ومع هذا . . .

ومع هذا فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه عن العاطفة الذميمة التى تقاتل فى قلبه . . . عاطفة الشك المعذبة . وها هى ذى تتشبث ببعض الذكريات التى مر بها مر الكرام فتعرضها من جديد على مخيلته فى إطار أسود مخيف فلا يملك إلا أن يتأملها متحيراً متفكراً . فهو يذكر كيف كانت زوجه تلقاه — على أيام خطوبتها — بجمود ووجوم كأنها تلقى جداً لا خطيباً ، وكيف أنها لم تحاول قط أن تفاتحه بحديث أو تشترك فى أحاديثه بحماس ، وكيف أنها كانت تقنع بالإجابات الضرورية فتلفظها فى اختصار ساسة الإنجليز . . .

لقد حمل ذلك كله على محمل حسن وقال غفوراً إنه حياء جميل . ويجوز أن يكون قوله حقاً ، ولكن يجوز أيضاً أن يكون وهماً وأن يكون الباعث شيئاً غير الحياء، من يعلم ؟ ربما كان نفوراً وكراهية وكان ينبغى له أن يدقق ويتحقق . . . !

ويذكر أيضاً أن الحال لم تتغير بعد الزواج ، فلا تزال محافظة على رزانتها وتحفظها أو برودها — ولم يجرؤ ذكر هذه الكلمة على لسانه من قبل — وكم تمنى لو كانت عروسه لعوباً طروباً ، أما الآن فمن يدريه أنها ليست كذلك وأنها لا تصطنع البرود إلا فى حضرته ؟ وا أسفاه . أى شقاء وأى تعاسة ! ولم يكن حمدي خبيراً بالنساء ولا ذا حظوة لديهن ، فاضطر — فى عزوبته — إلى الاستقامة والزهد وقضى تلك الأيام محزوناً معدوم الثقة بنفسه ، وقد ظن أن الزواج دواؤه ونجاته فاستغاث به واطمأن إليه وحمد الله على نعمته ؛ ولكن ها هو ذا يوشك أن يخيب فى زواجه فيفقد الأمل الوحيد فى السعادة والحياة المطمئنة، وها هى ذى الزوجة تكاد تنكشف عن امرأة ككل النساء اللاتى لم يفز منهن بحظوة . . . فأى شقاء وأى تعاسة ! . . .

على أنه لم يستسلم للتشاؤم كل الاستسلام ولم ينغمس فى اليأس كل الانغماس وتعلق بالأمل الباقي له وهو أن يكون الأمر غير ما قدر والظن غير ما أساء ... وتمنى لو يستطيع أن يبدد هذه السحابة القاتمة الناشية على قلبه وأن يسترد بعض ما كان له من الصفاء والغبطة ...

على هذا النحو كانت تؤاتيه القدرة على تحليل أحزانه وأفراحه ، ولكنه كان إذا انتهى إلى عزم عرف كيف ينفذه بحذافيره لا يرده عن غرضه راد

وكان قد قطع شوطاً كبيراً وبدأ يشعر بالتعب فعاد أدراجه إلى مسكنه محى الرأس ملتهب المواطف ، ودخل إلى شقته وهو يتكلف الابتسام والهدوء فرأى عروسه جالسة إلى المائدة ، والغداء جاهز ، والأطباق مصفوفة وسمعها تقول له عاتبة :

« تأخرت عن موعدك »

فنظر إلى وجهها نظرة سريعة لأنه خشي أن تقرأ في عينيه ما يدعوها إلى التساؤل ، وجلس إلى جانبها ، بل وقبلها أيضاً كما ينتظر من شاب مثله في شهر العسل ، ثم قال معتذراً :

« مررت في طريقي بالحلاق وكان الصالون مزدحماً ... »

* * *

وفي صباح الغد خرج في موعده المعتاد وسار في طريقه المعهود ولدي مروره بمقهى النجمة قاوم رغبة شديدة نازعته إلى تصفح وجوه الجالسين بها وخيل إليه أن عينين براقتين تراقبانه بحذر وسخرية فغلا الدم في رأسه وخضب وجهه الشاحب باحمرار الخجل والعار ، ولم يذهب إلى وزارته ولكن دار دورة في الشوارع القريبة ، وكان يخرج ساعته من آن لآن وينظر إليها جزعاً مضطرباً ؛ فلما دارت في منتصف الثامنة عاد أدراجه حذراً متيقظاً حتى انتهى إلى صالون الحلاق وانسل داخلاً ؟ وكان خالياً إلا من صاحبه الذي حياه تحية الصباح ، وابتدره قائلا :

« جاء كعادته وغاب داخل العمارة منذ ربع ساعة ... »

وجمد الشاب في مكانه هنيهة لأنه أحس بأنه مقبل على دقيقة فاصلة في حياته ستقرر حتماً مصير سعادته وكرامته ، فخان الهدوء أعصابه على رغم صلابتها وقوتها وشمر باضمحلال مخيف وسمع الحلاق يقول له : « أتريد أن أصحبك ؟ » ؛ فما تمته عبارة الرجل وقال بحدة : « كلا » . وغادر المكان بسرعة وقد محا الغضب دبيب الاضطراب الزاحف على نفسه ، ودخل إلى العمارة وصعد السلم بخطوات ثقيلة وجعل يرمق باب الشرفة الذي يدنو منه بعينين جامدتين ، وقد شل عقله عن التفكير ما يتجاذبه من الأفكار والخواطر التي تطفو على سطحه بسرعة وتغيب بأسرع مما ظهرت غير تاركة من أثر سوى الذهول في النفس والحرارة في الدماغ . ووجد نفسه واقفاً بازاء الباب وكان يلهث كمن جرى شوطاً كبيراً وقلبه يخفق بعنف ويدفع الدم إلى رأسه فيدوي في أذنيه ، وكأنه خشي على إرادته من التردد فدس يده في جيبه وأخرج المفتاح وأولجه في الباب وأداره بخفة وحذر ودفعه على مهل وأدخل رأسه ليلقي نظرة على الردهة ثم دخل وهو يكتم أنفاسه ورد الباب بلا إغلاق كيلا يحدث صوتاً

وكانت الردهة خالية وجميع الحجرات مغلقة ... ترى أين الخادمة الصغيرة ؟ وانصرف نظره إلى حجرة النوم وخلع حذاءه ودنا منها على أطراف أصابعه حتى صار بازاء بابها المغلق وانحنى قليلا ووضع أذنه على ثقب الباب وأرهف سمعه فخيل إليه أنه يسمع غمغمة خافتة وأصواتاً أخرى ، ذهب الشك بعذابه وآماله وسفرت أمامه الحقيقة الأليمة المخزية وقد انطفأ نور بصره ثواني

من شدة الغضب ولم يعد يحتمل الجمود فتراجع خطوتين وثنى ساقه وشد عليها بقوة جنونية ثم أطلقها بعنف فى الباب فارتج ارتجاجاً شديداً وانفتح بحالة تشنجية وخطا خطوتين فاجتاز عتبة الحجرة ، ودوت فى الحجرة صرخة جنونية وقفز من الفراش جسمان عاريان ، الزوجة وذاك الشاب ...

وكانت المرأة فى حالة جنونية من الرعب ، فجسدها يرتجف ووجهها يصفر وعيناها تتسعان ، وقد سحبت اللحاف على جسمها بحركة عكسية ولبثت تنظر إلى زوجها كأنما تنظر إلى شيطان رهيب .. أما الشاب فهم بالجرى إلى ثيابه الموضوعة على « الشيزلنج » ولكن قدميه تسمرتا فى الأرض فجمد فى مكانه ، وجعل ينظر إلى الزوج نظرة ذعر ويأس مميتين ، ومد يده إليه يتوسل وقال بصوت مرتجف كأصوات الأطفال المنتحبين : « فى عرضك »

من العجيب حقاً أن الزوج لم يغشه الجنون ولم يندفع إلى الانتقام كما يحدث عادة ، بل هبط عليه جمود غريب وتلبسه هدوء غامض شبيه بنكسة الخمر التى ترد المنتشى الهائج إلى ثقل النوم ، فلبث واقفاً مكانه وجعل يقلب عينيه بين العاشقين فى هدوء قاس كأنه يشاهد منظراً بعيداً عن مشاركة وجدانه ومشاعره ...

ورأى يد زوجه وهى تسحب اللحاف على جسمها فسألها ببرود قائلا :

« أتخجلين من الظهور أمامى عارية ؟ »

وتحول إلى الشاب ، فصاح به هذا بصوته المرتعش المحموم :

« الرحمة ... دعنى أرتد ثيابى وافعل بى ما تشاء »

فقال له ساخراً :

« هل يروقك أن تموت فى ثيابك ؟ »

فصاح الشاب مولولاً : « الرحمة ... أنا فى عرضك »

فقال له بلهجة رقيقة :

« إرتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى »

فلم يطمئن العاشق إلى قوله وتوسل إليه بصوته الباكى المرتعب : « إرحمنى ... »

فقال له يطمئنه ويشجعه :

« إرتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى ... تقدم ، إنى أعنى ما أقول »

ولكنه لم يتحرك من مكانه واشتدت الرجفة بجسمه حتى خاله سيصعق صعقاً ، فسار بنفسه إلى الشيزلنج وأتى له بثيابه وقدمها إليه قائلاً بسخرية : « أتحب أن أساعدك على ارتدائها ؟ » ، وأسرع فى لهفة يحشر جسمه حشراً فى ثيابه ، فانتهى فى ثوان ، وكان شكله زرياً مضحكا ، فشعر رأسه المدهون بالفازلين يبرز مبعثراً من حافة الطربوش ، وأزرار بنطلونه مفككة والقميص يتدلى من بينها ، والحذاء لم يعقد رباطه . ولكنه كان فى غيبوبة ذاهلة ، فنظر إلى الزوج نظرة تسليم ويأس وقال له :

— أنا تحت أمرك

وهز الرجل كتفيه استهانة وقال :

— وماذا أصنع بك ؟ لا فائدة لى فيك ... استأذن الهانم ـ فاذا أذنت لك انصرف مصحوبا بالسلامة »

فألقى إليه الشاب بنظرة كأنها تقول : لم التعذيب ... أقتلنى إن شئت ولكن بسرعة . وقد فهم معناها فهز كتفيه مرة أخرى بهزء وقال :

ألا تريد أن تذهب ؟ ألم تشبع بعد ؟ أما تزال لك رغبة فيها ؟ ..

فاشتد الارتباك بالشاب ، ورأى الزوج يوسع له الطريق فتحرك بخطوات بطيئة وهو لا يصدق ما يسمع ومايرى. ولما صار بإزائه أحس بيده توضع على كتفه فانتفض رعباً وتوقع شراً ولكن الرجل بادره قائلاً : لا تخف... ستذهب كما تشاء ولكن أين..؟

قال هذا وبسط إليه كفه فنظر إليه العاشق مرتبكا متسائلا فقال :

— الثمن

فظل الشاب ينظر إليه صامتا فقال الزوج بلهجة جدية

— مالك ! ؟ ألم تحظ بوصال هذه المرأة ؟ فلم لا تدفع الثمن ؟ هل تظن أن الوصال هنا بلا ثمن ؟

— سيدى ...

— يالك من عاشق بخيل ! ألا تريد أن تجود بشيء؟ بكم تثمن هذه المرأة ؟ هه ؟ إنها تستأهل ريالا فما رأيك ؟

ولما يئس من الشاب فتش جيوبه بنفسه حتى عثر على حافظة نقوده واستخرج منها ريالا ثم ردّها إليه وهو يقول « تفضل الآن فاذهب إلى حيث تشاء ... »

وانفلت الشاب خارجاً لا يصدق أنه فاز بالنجاة، والتفت الزوج إلى زوجه فقال لها « ارتدى ثيابك ياسيدتى واطردى عنك الرعب فلا خوف عليك ولا أنت تحزنين »

* * *

كيف استطاع أن يسيطر على عواطفه ؟ كيف أمكن أن تطيعه أعصابه تلك الطاعة العمياء ؟ هذا سر من أسرار الطبيعة يعجز عن إيضاحه البيان ، وعلى كل حال فقد انقضى ذلك اليوم كما ينقضى الكابوس الأليم . ولم يشر إليه — بعد انقضائه — بتلميح أو تصريح — ولا ذكره بخير أو شر ، ولا أجرى بسببه تحقيقا ولا أثار عنه سؤالا وطالعها بوجه هادئ طبيعى كأنه شخص آخر غير الزوج المطمئن ، ولم ينقطع عن عمله أو يغير من عاده ولا كف عن أحاديثه أو فتر عن مداعباته . وكان يذهب ويعود ويعمل ويستريح ويأكل ويشرب وينام ويقوم وكأنه زوج سعيد يعاشر زوجه الحبيبة أو رب بيت مطمئن يسهر على بيته وأسرته دون أن ينغص حياته منغص أو يكدر صفوها مكدر

وكانت المرأة فى أول عهدها بالفضيحة كالمجنونة من شدة ما يعذب نفسها من الخوف والرعب والعذاب، وقد توسلت إليه ضارعة وهى تبكى أن يطلقها ويستر عليها، ولكنه قال وكأنما فقد ذاكرته : « أطلقك! له ؟ أمجنونة أنت ياعزيزتى ؟ » وأسقط فى يدها ولبثت حائرة مذعورة معذبة تخشاه وتتوجس منه خيفة ويغلق عليها أمره فلا هو يطلقها ولا هو ينتقم منها والأعجب من هذا جميعه سلوكه نحو عاشقها فى ذلك اليوم الأسود ...

ومضت الأيام طويلة ثقيلة فلم تحقق مخاوفها ولم تصدق هواجسها وأخذت تخف عليها وطأة الخوف وتتناسى همومها فيما تقوم به من الواجبات البيتية، ووجدت نفسها — وهى لا تدرى — تتفانى فى خدمته والسهر على بيته وتوفير الراحة له بحماسة الخاطئ الذى يعالج جرح ضميره بالتكفير والتعذيب ، على أنها لم تطمئن إلى دعته كل الاطمئنان وكانت تسأل نفسها حيرى... ترى هل نسى وغفر ؟ أم هو يتناسى ويتعزى ، أو ما الذى تنطوى عليه حياته المبهمة وابتسامته الغامضة من النيات ...؟

ولبثا على حالهما والأيام تحث السير وكل منهما متظاهر بالألفة والاطمئنان ويجتر أفكاره فيما بينه وبين نفسه ، حتى كان يوم دعا فيه الزوج جميع أهله وأهل زوجه إلى مأدبة غداء ، وبذل لإعدادها فوق ما تحتمل قدرته حباً وكرامة . وأمّ بيته ذلك اليوم جميع أفراد الأسرتين نساء ورجالا ، فتيات وفتيانا وعلى رأسهم حماه وحماته ، فضاق البيت بالمدعوين وضج جوه بأحاديثهم وضحكاتهم وازداد سعادة بما شملهم من ود عائلي جميل ... وتشعب الحديث شعباً مختلفة فطرق موضوعات السمنة والنحافة والزواج والعزوبة وبنات الأمس وبنات اليوم ، ومس السياسة حيناً والدرجات والعلاوات والأطفال أحياناً كثيرة ... وشارك المهندس فى الأحاديث بشهية عظيمة ، وكان بادى المسرة والبهجة عظيم الاقبال على مجاملة ضيوفه والترحيب بهم

وقد توقف عن الكلام بغتة كأنما تذكر أمراً مهماً ، ثم دس يده فى جيبه فأخرج ريالا ، جعل يقلبه فى يده ثم أعطاه حماه وهو يقول :

— أنظر إلى هذا الريال ياعماه ... أتراه مزيفاً ؟

فأخذه الرجل وجعل يقلبه بين يديه وقد اتجهت إليه الأنظار من كل صوب ثم قال :

— كلا يا بنى إنه صحيح لا شك فيه ... هل رفضه أحد ؟

واختلس الزوج نظرة الى زوجه فرأى وجهها مصفراً يحاكي وجوه الموتى فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— لم يرفضه أحد يا سيدى ولكنى أردت أن أطمئن عليه لأنه محور قصة عجيبة قد يروقكم جميعاً سماعها

فازداد اهتمام الحاضرين ودل تطلعهم إليه على شوقهم إلى سماع قصته ، فطلب إلى حميه أن يعطى الريال زوجه ثم قال :

— إن شوشو تعرف قصة هذا الريال خيراً منى ، وسأتنازل لها عن حق روايتها ... هيا يا شوشو قصى عليهم القصة العجيبة وهى حقيقة تفتح شهوتهم للطعام

وانصرفت الوجوه إلى الزوجة وقد تضاعف اهتمام الجميع وتوقعوا جميعاً قصة شائقة . أما شوشو فكانت فى حالة يرثى لها من الذعر والارتباك ، وقد جمعت قوتها المشتتة وقامت واقفة وشقت طريقاً بين الجالسين إلى باب الحجرة ، فاحتجوا على قيامها وحاول بعضهم منعها ولكنها قاومت الأيدى وهى تقول بصوت خافت مضطرب « انتظروا دقيقة ... سأعود فى الحال ... »

وولت خارجة وعينا زوجها تتبعانها بنظرة قاسية

* * *

يستطيع القارئ أن يستنبط الخاتمة المروعة فانه لاشك يقرأ كثيراً فى الصحف عن اللاتى يرمين بأنفسهن من النوافذ العالية فيسقطن مهشمات مشوهات ، ولعله إذ يقرأ هذه الأخبار المقتضبة يتساءل عن أسبابها الخفية ويذهب به الحدس كل مذهب . فهذا سر واحدة من أولئك المنتحرات ، وإنه ليؤسفنى أن تنتهى القصة إلى هذه النهاية المحزنة ولكن ما حيلتى وقد بدأت بتلك البداية الأسيفة ؟

والحق لا تقع علىّ تبعة بدايتها ولا نهايتها فهكذا يرويها بطلها المحزون الذى غدا لا يفارق الحانة ليل نهار . وكم تمنيت لو كان كاتبها كما كان راويها ، لأنى وأسفاه لا أستطيع مهما أحاول أن أبلغ بعض ما يبلغ من صدق الرواية وقوة التعبير

نجيب محفوظ

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل السابع والعشرون

أعضاء السفارة بحضرون وليمة

في اليوم التالي لافتتاح البرلمان جاء المترجم إلى السفير وقال له : «هذه خمس دعوات لتناول العشاء»

فقال السفير : الله الله ! من الذي يستطيع أن يأكل خمس مرات في ليلة واحدة ؟ »

قال المترجم : « ليس من الضروري أن تأكل بتاتاً بل تحضر الاجتماع دون أن تتناول الطعام ؛ وهذا مسموح به في عوائدنا »

قال السفير : « هبني لا آكل شيئاً ، ولكن حضور خمس دعوات يستغرق جانباً عظيماً من الليل فكيف ذلك ؟ إننا فارسيون ننام بعد صلاة العشاء ونستيقظ قبل أذان الفجر »

فقال المترجم : « ما دمت مقيما بيننا فانك ستعتاد عاداتنا ؛ ونحن لا نكاد نفرق بين الليل وبين النهار في هذا الفصل من العام »

فقبل السفير وذهب معه ومع المترجم . وكانت الوليمة الأولى في قصر وزير ، وقد لبس السفير كعادته في الحفلات ووضع الريشة على قلبقه والخنجر في حزامه وتقلد السيف المجوهر . ولبست كذلك ما يلائم هذه الحفلة من الثياب

وصلنا إلى قصر الوزير فلم يقل لنا أحد « باسم الله ! » ولا دعانا أحد للأكل بل فتح باب ودق جرس فقام من أراد أن يقوم إلى غرفة المائدة ، وانتظر في غرفة الجلوس من أراد أن ينتظر

وكان صاحب المنزل كأنه أحد الزوار ، والزوار كأنهم في بيوتهم ، فلا خجل ولا احتشام ولا انتظار للترحيب . وكانت زوجة صاحب المنزل موجودة بيننا كأنها أحد الرجال ، وكأنه لا شأن لها بأعمال الطباخين ونظام الوليمة ! وكل الذي وجدناه من مظاهر الترحيب هو النظر إلينا والابتسام . وكان بيننا كثير من السيدات لو أن على وجه إحداهن نقاباً لتدلهت غراماً بها ، ولكن لسفورهن ما كنت أفكر في أنهن نساء

وقد بدأت المحادثة عما إذا كانت الشمس قد ظهرت في هذا اليوم أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها ظهرت ، واشتد الخلاف على مدة ظهورها ، فقال البعض إنها خمس دقائق وقال آخرون بل عشر

وكان المتكلم في هذا الموضوع موجهاً الالتفات إلينا لما يظنه البعض من أن الفرس يعبدون الشمس ، وسألتنا زوجة الوزير عن ذلك فأجابها السفير : « إن بلادكم ليست في حاجة إلى الشمس ما دام لنسائكم هذه الوجوه المشرقة . فلما ترجم هذا القول إلى اللغة الانكليزية قوبل بالاستحسان العام واعتبر فكاهة لطيفة

وقال الوزير : «ولكن إذا عبدتم هذه الشموس كما تعبدون الشمس في بلادكم ، فإننا سنفكر في إنشاء

مصنع للبراقع فى لانكشير ونجعل فى كل بيت قسماً للحريم

وعلى أثر ذلك تبادل الحاضرون المزاح والفكاهة فى هذا الموضوع . وقد دلنا ذلك على شىء فى الخلق الانكليزي لم نكن نتوقعه لأن هذه الشفاه المطبقة التى لا تكاد أن تفتح للكلام برهنت على أن دونها روحاً فكاهية حلوة

وقد حضرت العشاء فلم أجد متسعاً من الوقت للتفكير فيما إذا كان اللحم لحم حيوان مذبوح أو ميت، بل أكلت كل ما وقعت يدى عليه . ورأيت أمامي أنواعاً من النبيذ ما راعيت فى الامتناع عنها إلا وجود السفير

ولقد خطر لى فى أثناء الطعام أن هذا اللحم لحم خنزير . ولكن يدى لم تقف عن تناوله بل قلت باسم الله ثم التهمته

وكان السفير أكثر حذقاً مني فى استعمال الشوكة والسكين وأشد إقبالاً على تناول الطعام . ولقد أخطأت بحكم العادة مرتين فاسترعيت لسوء الحظ أنظار من حولى . أما إحدى الغلطتين فاني قاسمت جارى خبزه ؛ وأما الغلطة الثانية فانى شربت من كوبه . وكدت آخذ شيئاً من الطعام بأصابعى ولكنني تمالكت نفسى قبل الوقوع فى هذه الغلطة

ولما انتهى الأكل وقف السيدات دون الرجال وبقى هؤلاء وحدهم على المائدة ، فقلت للمترجم : إن هذا هو الشىء الوحيد الذى وجدناه قريباً من عوائدنا ولا بد أن يكون مستعاراً من الاسلام

فقال المترجم : إن النساء يقمن قبل آخر الوليمة ليكون الرجال أكثر حرية فى شرب النبيذ وفى المحادثة

وقد شجعنى التبسط فى الكلام أثناء ما جرى من الحديث على أن أتكلم باللغة الانكليزية فكان الجميع ينظرون إليّ ويبتسمون ولا أعرف هل فهموا ما كنت أقول أم لم يفهموه

الفصل الثامن والعشرون

المحاضرة

لما انتهت الوليمة الأولى ذهبنا مع المترجم إلى قصر آخر وهو الذى فيه الحفلة الثانية ، وهى حفلة راقصة . وقد جلس السفير إلى جانب زوجة اللورد وجلس كل رجل بجانب سيدة

وسأل السفير المترجم : لماذا يجعلون حفلاتهم بالليل ؟ أليس فى النهار متسع من الوقت لذلك ؟

فقال المترجم : إن الوقت لا يتسع الآن للشرح . فسكت السفير وقد كنت وإياه فى أشد الحاجة للنوم . ولولا احترام الموقف لأدركنا النعاس ونحن جالسون

وإنى أشك كل الشك فى تصديق الناس إياى لو وصفت لهم ما رأيته فى هذه الحفلة

لقد كان النساء يتحلين من الجواهر بما لا يوجد مثله عند الشاه . وكانت أجمل فارسية تعد دميمة بالقياس إلى من رأيتهن من الحسان . ولئن كنا نصف أجياد السيدات وعيونهن بعيون الغزلان وأجيادها ، فإن هذا التشبيه يزرى بالجمال الذى رأيناه ، والذى ليس من حقه أن يشبه بشىء ما . وقلت في نفسى إذا كان فى الدنيا لذة وسرور فهما فى المرقص دون غيره . وإذا كان النساء جديرات بالحب فهن نساء هذا البلد السافرات لا نساء فارس المحتجبات

هكذا كان مجال تفكيرى . ويظهر أنه كان

مرتسما على وجهي ؛ فان أحد الجالسين حادثني باللغة الفارسية وسألني ألست أفكر في المنظر الذي أراه ؟ فقلت: « بلى ، ولكني أظن أن السيدات الانكليزيات يصرن أجمل مما هن الآن إذا وضعن على وجوههن البراقع ، فلماذا لا تفرضون عليهن ذلك ؟ »

فابتسم وقال: « قد يفعلن ذلك في يوم من الأيام إذا ظهر لهن أنه يبرز جمالهن . ولكن كل إنسان في هذه البلاد حر في وجهه يفعل به ما يشاء »

قلت : « ولكن العجائز قبيحات جداً ولست أعرف السبب في ذلك . فهل عند شاهكم طريقة للتخلص منهن؟ لقد كان الشاه عباس يقتل الخصيان إذا لم يموتوا من تلقاء أنفسهم في الوقت المناسب »

فضحك محدثي وقال : « إن قتل امرأة عجوز قد يؤدي إلى نشوب ثورة ، وليس من الممكن أن أن يقوم بيننا ملك كالشاه عباس »

ثم أخذ يشرح لي بعض عادات بلاده التي لم تكن لديّ فكرة عنها

وأشار إلى أحد الجالسين فقال إنه ولي العهد . وهو كسائر الموجودين يتحدث ببساطة ولا يعيره الناس التفاتاً خاصاً سوى أنهم يحرصون بقدر الامكان على ألا يوليه أحد ظهره

قلت : « ألم تقدم إليه الهدايا عند مجيئه ؟

فقال : « لا أعرف أنه أخذ شيئاً غير ما شربه من اللبن والشاي

قلت : « هذا شيء غريب ! ان الملك وأبناءه ليس لهم أقل امتياز في هذه البلاد ، ولكن في بلادنا يعد الجلوس في مكان واحد مع أحد الأمراء نعمة كبرى »

وجدت بين الجالسين رجلا يحتفي به الجميع أكثر من احتفائهم بالأمير ويظهر له الأمير نفسه أكبر احترام

قلت لمحدثي : « أليس هذا أميراً أيضاً ؟ إننا معشر الفارسيين نلتفت كل الالتفات إلى مظاهر الوجاهة فلا يفوتنا شيء منها

فقال : « لقد أصبت ! إن هذا رجل كبير الأهمية عندنا وإن لم يكن أميراً . وقد نشأ جندياً بسيطاً وارتقى بنشاطه في صفوف الجيش فهو يعد عندكم الملقبين بلقب « غازي »

قلت : « ولكنني أراه يسكب الشاي في فنجان امرأة عجوز وذلك ماليس يفعله عندنا غير الخدم . إن أحد القواد عندنا لو فعل مثل ذلك لعزله الشاه في اليوم التالي لأنه استخف بكرامة نفسه

فابتسم وقال : « دعنا من ذلك الآن وانظر إلى المحاصرة فهذا شيء جديد عليك » والمحاصرة أن يشتبك كل رجل مع سيدة بيديه وبرجليه ويدور على نغمة ما . وليس في بلادنا من يرقص غير الأجيرات . ولكن هؤلاء أعلى طبقة من الناس ولا يرقصون إلا رغبة في السرور

فلما أبديت له هذه الملاحظة قال إن المأجورات على الرقص يوجدن هنا في مسارح عامة وستراهن في يوم من الأيام

قلت : « أليس عندكم من يرى الرقص غير لائق أو يحاول إبطال هذه العادة ؟ »

فقال : « هذه عادة حديثة وقد وجدت مقاومة في بدء ظهورها . ولكن عندنا مايقال له « المودة » وهي أقوى من شاهكم ألف مرة وأكثر استبداداً . وسبب التعلق بالمودة هو أن رغبتنا في التقدم لاتجد حداً لتقف عنده

كان الراقصون إلى الآن من الشبان ولكنني رأيت فجأة ما هالني وأدهشني

فقلت لجاري : « ألا ترى ؟ هذا رئيس وزارتكم يرقص ! »

فابتسم وقال : « ماذا يهولك من ذلك ؟ إن ملكنا يرقص أيضاً وكذلك المفتي عندنا ورجال الكنيسة والحربية والبحرية والقضاة

قلت : « أقسم برأس الحسين لو أن الشاه علم أن أحد وزرائه يرقص لضربه على قدميه في الطريق العام إن لم يفعل به أكثر من ذلك »

في كل هذه المدة كان السفير غائباً عن نظري وأخيراً وجدته بين جماعة من النساء . وكان أكبر اهتمامه بواحدة منهن جالسة أمامه وهو لا يريد الانصراف عنها ولا الكف عن محادثتها . وكانت نظراته إليها كنظرات المجنون إلى ليلاه

ولما انتهت السهرة عدت مع السفير في عربة إلى دار السفارة ولم نذهب إلى سائر الولائم لأن الساعة كانت متأخرة من الليل

الفصل التاسع والعشرون

السفير يحب

لما كنا في العربة لاحظت أن السفير لا يطيق كتمان ما به من اللواعج . ولم يطل صمته حتى قال : « أقسم يا حاجي بابا أن فؤادي قد سلب ! هل رأيت مثل هذه العيون والثغور والأجياد ؟ هل رأيت شعوراً مثل هذا الشعور ؟ هل رأيت جلوداً أرق من هذه الجلود ؟ إن فؤادي يكاد يحترق ولكن ما الفائدة من هذا القول ؟ إننا فارسيون وهؤلاء النصارى لا يزوجوننا من بناتهم حتى ولو قبلنا أن نحلق لحانا وشواربنا . قل لي ما الذي أفعل ؟ تكلم يا حاجي بابا »

قلت : « ماالذي أستطيع أن أقول ؟ إنها جميلة حقاً . ولكن كيف عثرت عليها ؟ »

فقال : « إن شعورها نحوي مثل شعوري نحوها وقد نظرت إليها للمرة الأولى في مجلس النواب . ولما تبادلنا النظرات جاءت بها أمها إليّ وقد تمكن حبنا فما الذي أفعل ؟

قلت : « أرى أن تكتب إليها أبياتاً من الشعر ، فإن الحب بغير شعر أمر لن يكون »

قال السفير : « نعم ياحاجي بابا . ولقد قلت أبياتاً من الشعر منذ رأيتها ، ولكن من الذي يستطيع أن يفهم شعري الفارسي ؟ ولقد حاول المترجم أن يشرح لها ولأمها ولمن رأيتهم حولنا هذه الأبيات فبدل أن يطربوا أخذوا يضحكون . وهذا هو معنى مطلع القصيدة

« يانسيم الحب قل للمروحة التي تحركك لماذا تطردنا نحن إلى الصحاري والجبال ؟ »

قلت : « إذا كان هذا الشعر لا يملك قلبها فان قلبها يستحيل إذن أن يملك . وأرى على أية حال أن تبعث إليها بالهدايا من الشيلان والجواهر وأن تكتب إليها خطاباً بالمداد الأحمر »

فقال : « هذه بلاد شديدة الخطر على رجل مسلم . إن عيون نسائها تقتل يميناً ويساراً ولا أمل في الزواج لغير المسيحي »

ومن ذلك الوقت لم يصطحبني السفير ولم يصطحب أي رجل من أعضاء السفارة إلى الحفلات التي يحضرها سيدات من الانكليز . ولعل ذلك خوفاً من نقل أخباره إلى الشاه ، أو لعله لا يريد أن تشهد

ضحك حبيبته وأصحابها منه ، أو لعله خشى أن تزاحمه فى حبه

ومهما يكن غرضه فانه صار لا يصطحب غير المترجم. وكانا يترددان على قصر كبير يكاد يكون أكبر من قصر الشاه . وهذا القصر لإحياء الموسيقى والرقص؛ وقد ذهبت معهما مرة إليه لأنه من الأماكن العامة التى يستطيع أن يزورها كل إنسان مقابل أجر معين ؛ ويطلقون على هذا القصر اسم «الاوبرا» ؛ وتكوينه من الداخل عجيب جداً ، ففيه أماكن كخلايا النحل ضيقة يجلس فيها الوجهاء ؛ أما المكان الفسيح فى صحن البناء ففيه كراسى يجلس عليها العامة

جلسنا فى خلية من هذه الخلايا التى يختلط فيها الرجال بالنساء . وكان عدد كبير من الناس لا نرى إلا رؤوسهم، والمكان مضاء بأنوار أسطع من التى فى معرض النور بقصر الشاه

واستقبل الكل منصة عالية كالتى يجلس عليها القضاة ويسمونها المسرح . وصدحت الموسيقى فلم تلائم أصواتها أذواقنا لأنها تخرج مئات من الأصوات المختلفة ، يختلط بعضها ببعض فيجعل اللحن شديد الاضطراب ، ولكن الانكليز يطربون له كما نطرب نحن لسماع أغانينا الشجية

وعلى حين فجأة ارتفع ستار عظيم كان يغطى هذه المنصة فرأينا من المناظر ما يعجز القلم عن وصفه

مئات رواية محزنة كدنا نبكى عند مشاهدتها ، ثم تلاها رقص وغناء لم يعجبنا فى أول الأمر لقبح الطريقة ، ولكنه أطربنا بعد قليل لرخامة الأصوات . أما الرقص فإنه مدهش إلى غير حد ، وأقسم لو شاهده الشاه لنزل مهرولاً عن عرشه فجأة أمام هؤلاء الحور اللواتى لا يشبهن إلا حور الجنة

وقد عجزنا عن مفاخرة الانكليز فى هذا الشأن لأنه ليس لدينا موسيقيون أو ممثلون نفتخر بهم وإن كان عندنا شىء من الغناء والموسيقى . أما التمثيل فهو إبداع ليس لنا فيه أقل نصيب

وقد استمر السفير يذهب إلى هذا المكان حتى توهم بعض الانكليز أنه مسرور من كل عوائدهم

وطلبوا إليه أن يسعى فى بلاده إلى رفع الحجاب عن السيدات وتعويد النساء والرجال الفارسيين عوائد الفرنجستان . فعند ذلك غضب السفير وكف عن الذهاب إلى هذا المسرح إظهاراً لاقتناعه بفضل عاداتنا الشرقية . ولما جرى الحديث بينه وبين المترجم عن الملاهى قال المترجم إنها ضرورية لانعاش الناس وتجديد قواهم

فقال السفير : « يظهر أن الشعب الانكليزى من أبلد الشعوب لأنه محتاج دائماً إلى التنشيط والانعاش ، أما نحن فى إيران فحسبنا من ذلك النيروز وحفلة ذكرى الحسين

وحضرنا بعض حفلات التمثيل ، وبالرغم من أننا لم نفهم ما يقال على المسرح فقد كانت مجرد الرؤية كافية لافهامنا المعنى ، واقتنعنا بأن هذا هو شعب المجانين . وحمدنا الله على العقل والحكمة اللذين وهبهما للشعب الفارسى

الفصل الثلاثون

حاجى بابا يتكلم الانكليزية

بدأت أخاطب الناس باللغة الانكليزية التى كان فهمى لما أسمعه منها أكبر من استعدادي للتكلم بها . ولقد وجدت كثيراً من كلامى لا يفهم بسهولة ، ووجدت ذاكرتى تخوننى فى حفظ بعض الكلمات

فانني أظن أني نطقت بها كما سمعتها والحقيقة أني حرفتها تحريفاً عظيما

وكذلك كان السفير يحاول الكلام باللغة الانكليزية مع حبيبته ومع الوسط الذي يلقاها فيه . وفي يوم من الأيام أقبل عليّ منزعجاً وهو يصيح : « هات القاموس : يظهر أن الذين كانوا على ظهر السفينة خدعوني فأفهموني معنى كلمة على غير صحة . وقد نطقت بها أمام السيدات فضحكن وأخجلنني . والله لو رأيت هؤلاء البحارة لمزقت جلودهم

قلت له : « ماهي هذه الكلمة وما مناسبتها ؟ »

فقال : « لقد سألتني الفتاة عن زوجتي في فارس فوصفتها لها وتشجعت على الكلام باللغة الانكليزية ، فلما نطقت باحدى هذه الكلمات حلقت هي ومن حولها ثم تهامسن وتضاحكن وشعرت بالخجل لأنهن لم يطلعنني على غلطتي

وفي هذه اللحظة جاء المترجم فسردنا عليه الخبر فابتسم وقال للسفير : هذه الكلمة من أغلظ مافي لغتنا من الكلمات ، ولا بد أن تكون تسقطتها من البحارة أو السابلة . فألح السفير في البحث عنها في القاموس . وقد وجدها فيه ووجد لها معنى مناسباً فاطمأن وقال : يظهر أن ما يسميه المترجم (بالمودة) يعدى الكلمات عندهم أيضاً فما يجوز عندهم التكلم به اليوم لا يجوز في الغد

وعزم على أن يكتب لتلك الفتاة فيخبرها بأنه وجد الكلمة في القاموس

ولكن المترجم نفى ضرورة ذلك وقال : إن غلطتها ستدلها على أن السفير غير متعمد للخطأ . وإن الكتابة إليها قد تضطرها إلى الرد مع أنها تؤثر بالطبع أن تتجاهل حدوث هذه الغلطة »

قال السفير : « إذن هذه رقة في طباعكم ! ألا تعود إلى ذكر هذه الغلطة ؟ هل قلت إنها تتجاهلها ؟ هذه هي نهاية التهذيب . إننا مهذبون في فارس ولكننا لم نبلغ بعد هذه الدرجة »

فقال المترجم : « إن أصل معنى الكلمة عادي ، ولكن الكناية معروفة في انكلترا كما هي معروفة عند الفارسيين ؛ وفي كل يوم تتجدد كلمات يكنى بها عن المعاني التي أصبحت كناياتها القديمة مبتذلة

قال السفير : « على ذكر الكنايات أسألك عن الكلمة التي يكنى بها عن كلمة زوجة ؟ »

فقال المترجم : « هذه كلمة لا تحتاج إلى كناية »

قال السفير : « ما أبعد الأذواق بين الأمم المختلفة ! هل يجرؤ أحدكم على سؤال الآخر عن زوجته دون أن يكنى عنها ؟ ألا تشير هذه الكلمة إلى ألف معنى من المعاني المبتذلة ؟ إننا لا نقول لأحد كيف زوجتك ولكننا نقول كيف بيتكم »

قال المترجم : « هذا الاصطلاح عندكم له ما يبرره لأنه ليس لأحدكم زوجة واحدة بل زوجات متعددات . أما نحن فما دام المرء لا يتزوج إلا من واحدة فقط فلا معنى لهذا التعبير الجامع

قال السفير : « أليس في لغتكم تعبير يبتدىء به كل شيء مثل قولنا « باسم الله »

فقال المترجم : « لا »

قال السفير : « يظهر إذن أنكم من فصيلة كردية ، فان الأكراد لا يبدأون باسم الله . ونحن في فارس نسميهم عباد الشيطان من أجل هذا السبب

فقال المترجم : « إن الألفاظ التي يطول تكرارها تفقد وقعها . وفي اللغات ألفاظ كثيرة يجب أن تصان عن الابتذال

قال السفير : « إذن لماذا لا تصونون بعض ألفاظكم مثل كلمة « دام » التي سمعتها من كل انسان فقلتها للسيدة فضحكت مني ؟ » فلم يحر المترجم جواباً ، ولكن عند انتهاء المحادثة صمم السفير على الاتفاق مع مدرس يعلمه اللغة الانكليزية ... وكذلك صممت تنفيذاً لأمر الشاه حتى أتمكن في وقت قصير من ترجمة الكتب الانكليزية

وقد نصحنا المعلم بأن نتعلم اللغة اللاتينية أيضاً فقال السفير : « وما هي اللاتينية ؟ إنني لم أسمع قط هذا الاسم »

قال المعلم : « إن الانسان لا يعرف شيئاً عن العالم حتى يتعلم اللغة اللاتينية »

فغضب السفير وقال : « إن بلادنا من عهد جمشيد تعيش بغير اللغة اللاتينية وقد أحرقنا قبور الروس مع ذلك »

قال المعلم : « إذا كنتم تجهلون اللاتينية فانكم تعرفون الفرنسية أو الايطالية فهما لغتان شائعتان » فقال السفير إننا لا نعرف الفرنسية ولا الايطالية ، ولكن عدداً قليلاً منا يعرف التركية أو العربية ؛ فأصر المعلم الغبي على ضرورة تعلم اللاتينية . ومن ذلك اليوم وضعنا له اسما لنسخر به فدعوناه لاتيناجي

الفصل السادس والثلاثون

السيدات الانكليزيات يزرن السفير

مضى علينا عدة شهور في بلاد الانكليز واعتدنا كثيراً من عوائدهم ، فكنا عندما يسير اثنان منا معاً لا يمسك أحدهما بذراع الآخر في الطريق لأن هذه العادة خاصة في انكلترا بالرجل مع المرأة . وامتنعنا عن الأكل بأصابعنا واعتدنا شرب الجعة وامتنعنا عن جلوس القرفصاء وكثير زوارنا خصوصاً من السيدات اللواتي كن يستصحبن إلينا أزواجهن وإخوتهن . وكانت الواحدة منهن تأتي وحدها في بعض الأحيان وقد توطدت الصداقة بين السفير وبين الكثيرات منهن وكثرت هداياه إليهن . ولكن حبه ظل مقتصراً على واحدة منهن هي الأولى التي تقدم ذكرها

وفي يوم من الأيام وصلت رسالة من طهران فاهتاج السفير عند قراءتها وأخذ يسب رئيس الوزارة ويلعنه ، وقال إن هذا الخطاب من زوجته وإنها علمت بأن لديه جارية شركسية وإنها تؤنبه . وقال بصوت ملؤه الرقة : « لماذا تلومني وتؤنبني ؟ إن الجارية ستكون خادماً لها عند ما نعود إلى إيران . أليس يكفيها من العناية بها والحرص على رضاها أنني لم أجمع إليها زوجة أخرى ؟ » ثم عاد الغضب فاستولى عليه وصاح : « ولكن من الذي أبلغها ؟ هل يوجد هنا من يتجسس علي ؟ » وأخذ يلعن الساعة التي عين فيها بهذا المنصب وغادر بلاده المحبوبة وزوجته وابنه

ومن بين العادات التي اعتادها السفير شراء جريدة انكليزية كل يوم لأنه كان يجد بها أخبار انتقاله وأعماله . وكان بعضها يأتي محرفاً في كثير من الأحيان فيغضب ويهتاج ويرسل تكذيباً للجريدة . وكان يقول قبل أن يفتح الجريدة : « سنرى ماذا قال عني الكذابون اليوم »

وكان يقول : « لو أن شاهنا يطلع على هذه الأخبار فانه بغير شك سيقابلني بالمقرعة والفلقة » عند ما أعود إلى طهران

وكان من بين الأخبار التي كتبتها تلك الجريدة

عنه أنه يضرب جاريته الشركسية »

وحدث في يوم من الأيام حادث مزعج جدير بأن يكتب في قصة ألف ليلة . وذلك أنني كنت خارجاً من باب السفارة فقابلت سيدتين إحداهما أكبر من الأخرى . وكلتاهما جميلة جداً . ولكن الصغري أجمل . وكان شكلهما لا يدل على أنهما من الانكليزيات

تقدمت مني الكبرى وطلبت إليّ في جرأة مدهشة أن أصحبها إلى منزلي أو منزلها لنقضي ساعة لهو . فتجاهلت الغرض وتبالهت ، ولكنها ألحّت عليّ وأكدت أنه لا خوف من ذلك . وعدت بهما إلى غرفة الجلوس في دار السفارة وقدمت لهما الفاكهة والجمة وتسامرنا . ولكن الصغرى كانت أجمل في عيني من الكبري فخصصتها بعطفي ، وقد رأيت علائم الغيرة على وجه الكبرى وأنا خبير بغيرة النساء في فارس ، ولكنني لم أر قط غيرة جنونية كغيرة هذه السيدة ، فلم أكد أقبل الفتاة التي أعجبت بها حتى انهالت عليّ الكبرى بالضرب واللكم واللكز فأعطيتها ما معي من القطع الفضية ولكن اللعينة رمت بها فكسرت المرآة . وأسرعت فخرجت من الغرفة ودخلت غرفتي الخاصة

وبعد قليل سمعت بواب السفارة يطلب المترجم ويقول له إن في غرفة الجلوس سيدتين غريبتين إحداهما تبكي والأخرى تصيح فخرج المترجم وسمعت السيدة الكبيرة تقول له : « لا تخدعني فانك حلقت ذقنك وجئت تتجاهلني »

وسمعت المترجم يطردها ويتوعدها بأن يرسل في طلب البوليس . فخرجت السيدة وعاد المترجم وسألته وأنا أتجاهل الحقيقة فأجاب بأن السيدتين من البرتغال . وأفهمني أن الحقيقة لا تخفى عليه

ولما جاء السفير قال له المترجم ونحن موجودون إن لوندرا ليست مثل طهران ، فكل شخص في طهران معروف إلى حد ما . أما في لوندرا فالناس كثيرون وفيهم من يحصل على القوت بطريق غير شريفة وإنه لذلك ينصح لكل من في السفارة ألاّ يسمحوا بدخول أحد إليها إلا إذا قدمه المترجم

الفصل الثاني والثلاثون

أكاذيب الانكليز

نسيت هذه الحادثة سريعاً وكان كل يوم يمر يزيد السفير انصرافاً عن السفارة ومن فيها إلى مماشرة الانكليزيات والانكليز . وقد كنا نعتقد أننا معشر الفارسيين أقدر الناس على الكذب . ولكن إقامتنا في لوندرا دلتنا على أن الانكليز هم أكذب الناس حقاً . فمن أمثلة كذبهم أن أحد تجار العربات أهدي إلى سفيرنا سوطاً جميلا فقبله منه . وفي اليوم التالي وجدناه قد كتب على بابه وفي الصحف أيضاً أنه « متعهد لتوريد العربات إلى شاه إيران » وكنت مرة أمشي في الطريق مع محمد بك فمررنا بتاجر دعانا وقدم إلينا جوارب ومناديل فلم نقبلها ولكنه ألح وأكرهنا على أخذها فأخذناها . ولما مررنا بحانوته بعد ذلك رأيناه قد كتب أنه متعهد التوريد للسفارة الفارسية فعرفنا أننا لسنا وحدنا القادرين على الضحك على الذقون

وأرسل أحد المسارح دعوة إلى السفير ليحضر حفلة تمثيلية . فلما لم يردها وجدنا إعلانات كبيرة في الشوارع مكتوباً عليها بالخط العريض أن السفير الفارسي هو الذي اقترح تمثيل الرواية وأنه سيحضرها

وفى الليلة المحددة لتمثيل هذه الرواية أرسلنى السفير مندوباً عنه فى حضورها ، وقد تصادف أن المقصورة التى جلست بها تجاور مقصورة أخرى بها ثلاث فتيات وأمهن وأبوهن

وكان هذا الأب مفرطاً فى السمن وزوجته نحيلة جداً . أما الفتيات فانهن زاهرات يانعات من زهر الجمال

وتصادف أن يدى لمست عن غير قصد منى يد إحدى الفتيات فكان ذلك داعياً للالتفات إلى والرغبة الشديدة فى التعرف على

قالت الأم لها : « قدمي إليه برتقالة » فخجلت الفتاة وهى صغراهن وقدمت إلى برتقالة على استحياء . فقلت فى نفسي هذه تحية فارسية وقبلتها منها مع الشكر ، وشكرنى الأب على قبولها وعدَّ ذلك منى ملاطفة وقال وهو يحسبنى السفير : إنه يتمنى توثيق العلائق بين انكلترا وبين إيران

فتظاهرت بأبهة السفراء وأجبته جواباً ملائماً . وقد اتضح لى أن الرجل مشهور بوطنيته بين الانكليز . ثم سألنى هل فى فارس مسارح وهل أعرف اللغة الفرنسية وهل أنا متزوج ؟ فأجبته على ذلك

ولما سمعوا منى أنى لم أتزوج زاد اهتمامهم بى ولم تكف الأم عن النظر إلى ، وأخذت كل فتاة تعدل من ثيابها

قالت لى الأم : إن كبرى بناتها كريمة القلب تحب الفقراء ، وأنها تحوك الجوارب بيدها وتخيط الثياب وتعلم الأطفال ، وأن الفتاة الوسطى تجيد الرقص والعزف على البيانو وتتقن الايطالية ، وإن الصغرى لا تزال فى المدرسة ولم « تخرج من البيضة » إلى الآن — كما يقول الأتراك — ولمحت تلميحاً خفيفاً إلى أن الفتيات سيصرن من أغنى السيدات فى يوم من الأيام لأن لهن عمات وخالات كثيرات

ولقد استكشفت من حديثها السبب فى حرص الانكليز على العجائز من نسائهن فانها لما تكلمت عن زوجها لم تدع صفة من الصفات الحسنة إلا ونسبتها إليه بحيث لو اجتمعت فيه كل هذه الصفات لكان من الملائكة لا من الناس ، ووصفته بأنه غنى كريم حسن الأخلاق يحب أبناءه وبناته . فقلت ماشاء الله وهو سميع أيضاً فما اسمه ؟

قالت : اسمه يا صاحب السعادة المستر « هوج » وهو من أسرة اسكوتلاندية عريقة

ولما كانت كلمة « هوج » فى اللغة الانكليزية تعني « الخنزير » فقد كتمت ابتسامى وقلت فى نفسى : « لو كان هذا الرجل فى فارس لكان اسمه « ميرزا خنزير » أو « خنزير خان » ولا بد أن يكون الخنزير محترماً جداً فى هذه البلاد حتى سموا أبناءهم باسمه وقلت لها : « وما اسمك أنت ؟ »

فقالت : « كلنا من أسرة هوج . وقالت إن اسم ابنتها الكبرى « مارى » واسم الوسطى « بيسى » واسم الصغرى : « جسى »

ولما بدأ الفتيات يتكلمن معي أمطرنني وابلاً من الأسئلة . وكان بين أسئلتهن هل اليهود مضطهدون فى فارس كما هم مضطهدون فى روسيا ؟ وهل فى طهران تمثال للاسكندر المقدوني . ومثل ذلك من المفارقات . وقد فتنتنى الفتاة الوسطى بحديثها الحلو وصوتها الرخيم

ولما أرخى الستار وبدأ الناس ينصرفون قدم لى المستر هوج تلك القصاصة من الورق التى عليها

اسمه كما هى العادة عندهم وقال إنه سيزورنى ومعه أسرته فى اليوم التالى ...

لم يطل عهد ظنهم أنى أنا السفير لأن هؤلاء الانكليز يبحثون ويتساءلون . ولكن بحثهم لم ينقص من مكانتى بل زادها كما سيظهر فيما بعد فقد علموا أن لقبى ميرزا وحسبونى لذلك أميراً . وبدل أن ينادونى فى اليوم التالى بياصاحب السعادة صاروا يقولون لى يا سمو الأمير

وفى صباح اليوم التالى وقفت عربتهم على باب السفارة . ودعونى إلى تناول العشاء عندهم فى يوم بعيد من الشهر المقبل فقلت فى نفسى هؤلاء أول قوم من الانكليز أراهم يعتقدون بالتنجيم وإلا فلماذا يحددون هذا اليوم البعيد ؟

ولم أشأ أن أعرفهم بالسفير لأنه شديد الغيرة وقد كنت أعرف أنه من حق اختيار أصحابى . ولكنى لمعرفتى باخلاقه من جهة ، وحرصاً على ألا يرى المستر هوج وبناته خضوعى أمام رئيسى آثرت ألا أعرفهم به . والحق أن الانكليز يجهلون تمام الجهل هذا الخلق فينا ، فان أحدهم لا يتكلف فى الوقوف أو الكلام أمام وزير أو أمير ، ولكننا نحن الفارسيين نقف بشكل مزر أمام من هو أرقى منا ولا يستطيع الصغير ذو الكرامة أن يغير هذا الطبع لأن رؤساءه يتطلبونه وأقرانه لا يعذرونه

ومن العادات الغريبة عند الانكليز أن العروس هى التى تدفع المهر وأن مهرها فى العادة أضعاف ما يدفعه الرجل عندنا لعروسه . وقد أخبرتنى زوجة المستر هوج بأن مهر إحدى بناتها ثروة طائلة

قلت : لماذا لا أكون أول اصفهانى يتزوج من انجليزية ؟ إننى إن تزوجت فى إيران فلن أتزوج من غنية ، فالفارسيون يحرصون على التناسب بين أسرة الزوج وأسرة الزوجة خصوصاً بين الطبقات العالية . وفضلا عن ذلك فانى لو تزوجت من فارسية غنية فانى لا آخذ مثل هذا المهر الكبير . والفتاة مع ذلك جميلة وفوق الجميلة ، وأنا لا أزال فى ميعة الشباب فأنا كفء لها ، ولا تزال لحيتى سوداء كأول يوم سميت فيه لحية . وإذا ظهرت فيها شعرات بيضاء فالحناء موجودة ، وما ينقصنى إلا أن أتقن الكلام المعسول باللغة الانكليزية كما أتقنه باللغة الفارسية

الفصل الثالث والثلاثون

أسرة المحترم

سألت المترجم عن كل ما يلزمنى من آداب الدعوة للولائم حتى لا أقع فى مثل الغلطات التى طالما وقعت فيها منذ وصولى إلى انكلترا . وفى اليوم المحدد للدعوة ذهبت إلى ذلك المنزل وسألت البواب عن المستر هوج فأخبرنى بأنه ليس فى المنزل وبأن السيدات فى انتظارى ، فعددت ذلك من حسن الحظ لأن دخول الحرم فى إنكلترا بمثل هذه السهولة أمر لم يكن ليخطر لى ببال . وعدلت من ثيابى وأتقنت لبس القلبق وساويت شعرى ثم صعدت فوجدت الفتيات وأمهن ينتظرننى ، واعتذرت لى السيدة عن جهل البواب لأنه لم يعرف أنى ميرزا ثم قالت : « أليس لقب ميرزا عندكم هو لقب « برنس » عندنا ؟ لقد قرأنا ذلك فى رحلات المستر قوير »

قلت : إنه يخطئ حيناً ويصيب حيناً . فسألتنى الفتاة الصغرى : « أليس لقب ميرزا هو لقب الأمراء ؟ »

فقلت : إن دولتنا دولة كل رعاياها أمراء . فان كلمة ميرزا إذا كانت قبل الاسم كانت لقباً بسيطاً

وإذا كانت بعد الاسم كانت لقب الامارة

وعلى الرغم من هذا الايضاح فانهن أصررن على مناداتى بلقب « سموكم » ولا أعرف لماذا تشبثن بأنى أمير . وقد سألت صغراهن عن أبيها فقالت : إنه مسافر وسيعود فى المساء وإن من عاداته أن يفعل ذلك كل يوم . فقلت : يظهر أنه تاجر وهذه عادة التجار عندنا أيضاً ، ولكن هل المستر هوج يبيع لحم الخنزير ؟

عند ذلك بدا الغضب على وجه السيدة وقالت : ما الذى دعاك إلى أن تظن هذا الظن ؟

فقلت : إن التجار عندنا يلقبون بما يبيعونه فى بعض الأحيان . ثم تبينت شدة سخطها ، فحاولت إصلاح غلطتى وقلت : إن التجارة ليست عيباً عندنا فهل هى عيب عندكم ؟ إننى لاأعرف عادات البلاد ، وإنى أسير هنا بغيردليل ، وإذا لم يكن زوجك تاجراً فما هى صناعته ؟ »

قالت: إنه مدير شركة الهند الشرقية . فوجدت الفرصة مناسبة كل المناسبة لإصلاح غلطتى خصوصاً أمام الفتيات وقلت : لعله من ملوك الهند ؟ فابتسمت وقالت : « إننا لا نسمى مديرى هذه الشركة ملوكاً ولكنهم فى حكم الملوك

وسألتنى مارى : هل فى بلادكم مبشرون من الانكليز ؟ فحمدت الله على تغيير الموضوع الذى كنا نتكلم فيه وقلت : نعم لقد كنت أعرف فيها رجلاً يدعى بادرى وهو يقول : إن نبينا غير نبى ، وإن البابا رجل كذاب . وقد رجمه الفارسيون وأظنه فر من بلادنا »

فقالت : « لقد أساء الذين رجموه ! لماذا ؟ أليس هناك مجال للمناقشة ؟

قلت : « ليست المناقشة سهلة خصوصاً مع المسيحيين فى ايران ، فهم ليسوا مثل المسيحيين فى هذه البلاد بل هم أناس فى نهاية القذارة والشراسة ؛ وأفقر فقير من المسلمين فى ايران خير من أغنى غنى من المسيحيين فيها

ثم قلت : « إذا جاء الملك جورج إلى فارس وفتحها وألزم أهلها أن يكونوا مسيحيين فقد يصيرون كذلك . أما إذا جاء بادرى وجده وأرادأن يجعلهم مسيحيين فانهم يرجمونه . وليس يتم شىء فى فارس إلا بالسيف »

قالت : « لقد أرسلنا عدداً كبيراً من الأناجيل إلى فارس ولا بد أن يكون لها تأثير بين أهلها

فقلت : إن الأناجيل كتب طيبة ، والفارسيون لا يقولون كلمة واحدة ضدها ؛ ولكن القرآن الشريف أحسن منها ؛ والمسلمون يمدحون نبيكم فلماذا لا تمدحون نبينا أيضاً ؟ »

قالت مارى : « إننا سنجعلك مسيحياً قبل أن تفارقنا . هل زرت الكنيسة الانكليزية قبل الآن ؟

قلت : « إننى لم أزرها ولا أجرؤ على دخول معبد لإناس يخالفون دينى خشية أن أعامل معاملة سيئة ، لأنه لو دخل أحد المسيحيين فى مسجد من مساجد إيران لما خرج منه سليما . ولست أشك فى اننى أعامل هذه المعاملة لو دخلت الكنيسة فى بلاد الانكليز

فأكدت لى مارى بأن الكنائس مفتوحة الأبواب فى أوجه النصارى وغيرهم على حد سواء. وألحت على فى الذهاب معها إلى الكنيسة فى اليوم التالى فوافقت على ذلك

وعاملتنى الأم معاملة حسنة جداً فى ذلك اليوم

وفى الزيارات التى توالت بعد ذلك . وكانت بيسى التى طالما التقى نظرها بنظرى تقول لى باللغه الفارسية الفصحى : « خودا حافظ شوما » فأطرب لهذه التحية وترجمتها « أنت فى حفظ الله »

وأخبرتنى الأم بأن بناتها منذ قابلننى فى المسرح لم يفكرن فى شىء غيرى ، وان أكبر أمانى مارى الآن أن تجملنى مسيحياً ، وأن بسى قد خطت خطوات فى اللغة الفارسية ، وان « جسى » أصبحت لا تعنى بشىء مثل عنايتها بالتاريخ الفارسى

وقد سرتنى هذه الأخبار كل السرور وشجعتنى على الأمل فى صحبتهن . وكنت كلما خرجت من عندهن أقول فى نفسى : « الله أكبر ! انهن لسن سيدات فقط ولكنهن يصلحن أن يكن وزراء . أم كيف يتأتى للمرأة فى بلادنا أن تفكر فى دينها وأديان البلاد الأخرى ؟ وكيف يتأتى لواحدة منهن أن تدرس لغة أو تاريخاً لأمة أجنبية ؟

الفصل الرابع والثلاثون

حاجى بابا فى الكنيسة

فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى منزل صديقاتي ، وكان اليوم يوم جمعة الانكليز وهو يوم الأحد ، وكانت الأجراس تسمع فى كل مكان ؛ والشوارع مزدحمة بالذاهبين إلى الكنيسة على اختلاف درجاتهم وأعمارهم . وقالت مارى ونحن فى الطريق إن الحكومة هى التى تدير الكنائس فعجبت وقلت ان شاهنا وإن كان مستبداً فلا سيطرة له على المسجد ولا يستطيع أن يضطرنى إلى الزيادة من الاستغفار أو التقليل من قراءة الفاتحة ، وليس له أن يتدخل فيما بينى وبين ربى من غسل اليدين والرجلين ومسح ربع الرأس والاستنشاق والمضمضة وقص الأظافر . فتلك كلها أمور دينية متروكة الضمير

وقبل أن ندخل الكنيسة مع مارى تعرفت على أخيها الأكبر وقابلت أباها . ودخلنا الكنيسة جميعاً نساءنا والرجال . وما كان أشد الحاجة فى المعابد إلى وضع براقع على وجوه النساء لأنه يستحيل مع كثرة عددهن ألا تتجه إليهن العيون فى وقت الصلاة . ولقد كان من المحال علىّ أن تمر لحظة لا أزود فيها وجه بيسى بنظرة

وفى أثناء الطريق دفعت إلىّ مارى بكتاب أسود لأقرأ فيه الصلاة وقد فهمت منه أجزاء وفى أوامره ونواهيه ما يشبه الأوامر والنواهى التى فى القرآن ، ولكن النصارى لا يحفظونه عن ظهر قلب كما نحفظ نحن كتابنا المقدس بل يفتحونه ويقرأون فيه وهم يصلون ويحسبون صلاة مثل هذه يقبلها الله ...

وصعد المنبر شاب صغير ثيابه كثياب الناس جميعاً وهو حليق اللحية والشاربين فقلت فى نفسى كيف يتعظ الناس من قول أمرد كهذا؟ إن الخطيب عندنا يجب أن يكون أبيض الشعر محدودب الظهر ليصغى الناس إلى كلامه وليضعوا رأيه فى موضع الاحترام . وقد بطل عجبى عند ما رأيت هذا الخطيب الناشىء يفتح كتاباً ويقرأ لهم فيه حتى تنتهي خطبته وهو لا يهز رأسه يمنة ولا يسرة ولا يمسك سيفاً .

وقد ظهر لى فى جلاء أن المصلين وأمامهم هذا غير جادين و ليس فى صلاتهم شىء من الاهتمام . فقلت ليتهم يذهبون إلى فارس ليروا كيف يكون احترام الدين . فانهم هنا يجلسون على الكراسى الفاخرة على الوسائد الحريرية ويلتفت أحدهم فى أثناء الصلاة كما يشاء إلى اليمين أو اليسار أو الخلف ولا يعرف إن

ذلك يؤدى إلى الخروج من الصلاة . ونحن فى فارس نجلس كلنا على حصير واحد سواء منا الغنى والفقير ونولى وجوهنا وجهة واحدة ونخضع لله كما ينبغى أن يكون الخضوع له سبحانه ؛ وفى صلاتنا ركوع وسجود ، أما هؤلاء فصلاتهم جافة جافية كأنهم يعاملون الله معاملة الند للند . وهم لا يتوضأون قبل الصلاة ، ولكننى فهمت أن لهم قبلة كما لنا قبلة وان قبلتهم شطر بيت المقدس

وبعد أن أتم الخطيب تلاوة خطبته المكتوبة أنشد المصلون نشيداً كالذى ننشده نحن عقب صلاة العيد . ثم انفض الجمع وخرجنا ، وكنت شديد الاغتباط بخروجى سالماً لأنى لو كنت مسيحياً وحضرت مثل هذه الصلاة فى معبد إسلامى لحمدت الله على خروجى دون أن تتكسر عظامى . ولكن الأمر هنا على النقيض ، فالناس لم يروا فى وجودى بالكنيسة عند أداء الصلاة أقل مانع . ولو أن الذين لم تسبق لهم رؤيتى بثيابى الفارسية استغربوا هذا الشكل

ولم تدع زوجة المستر هوج وسيلة مباشرة أو غير مباشرة لإفهام الناس أنى أمير إلا فعلتها

ولما خرجنا من الكنيسة قالت لى :

« ما رأيك فى كنائسنا ياسمو الأمير ؟ »

فقلت : « لا بأس بها سوى أنكم لا تبذلون أقل عناية فى الصلاة »

قالت : « فما هو رأيك فى الواعظ ؟ »

فقلت : « هو جميل والنظر إليه يبعث السرور ، ولكنه لا يصلح للوعظ ؛ ولا يقبل وعظ ممن هو فى عمره ولو نصح الناس بحكمة سليمان وفقه الامام أبي موسى الأشعرى

وقد وافقنى المستر هوج على هذه اللاحظة وأخذ يتفلسف فى حكمة التجاريب ، وحاولت تغيير هذا الموضوع لأتكلم فى أى موضوع آخر تحبه بيسى ولكن (ماري) أو (الشيخ مارى) كما تستحق أن تلقب كانت تأبى أن يخرج الموضوع عن الدين

وقد سألتنى الأم عما إذا كنت أعرف السيدة فلانة أو غيرها من سيدات الطبقة الانكليزية الراقية ، وعما إذا كنت أدعى إلى حفلات الرقص فى بيوت السفراء والوزراء . وفهمت من أسئلتها أنها تريد أن تعرف وتشتهر فى تلك الأوساط وأن أكون الوسيط بينها وبينهم . وطلبت إلىّ أن أعرفها بالسفير فوعدتها بذلك على غير إرادتي وإن كنت أعرف أنه الوسيلة الأولى للتقدم نحو البيوت الراقية

الفصل الخامس الثلاثون

شركة الهند الشرقية

عدت إلى دار السفارة فوجدت السفير يتأهب لزيارة رسمية ليؤديها فى اليوم التالى . وهذه الزيارة فى قصر الشركة الهندية وهو واقع فى جزء بعيد عن المدينة ، وفى هذا القصر كل الأموال التى ادخرها أمراء الهند والصين وسرنديب فى عصور متعددة . وقد أمرنا السفير بأن نتأهب جميعاً لهذه الزيارة . واختار الهدايا اللازمة بهذه المناسبة ومن بين هذه الهدايا ديوان شعر نفيس من نظم جلالة مولانا الشاه

وقد كنا نعرف أن ملوك الهند السابقين هم حماة الشعر وأنصاره فلا بد أن يكون خلفاؤهم المحدثون على غرارهم . وكذلك جعل السفير من بين هداياه هذه صورة كبيرة مرصعة باللؤلؤ وهى من صنع محمد ناجى الشيرازى أكبر مصورى فارس فى

هذا العصر . وهذه الهدية ثمينة حقاً وهى أجل حتى من شعر الشاه

لبس السفير جبة عليها رسم الزهور بخيوط من الذهب وتقلد سيفاً مقبضه من العقيق وتمم محمد بك بشال من الكشمير وتمنطق بحزام أحمر ؛ وكذلك ظهر كل منا بأحسن مظهر . ثم ركبنا العربات إلى ذلك القصر العجيب الذى يكاد يكون كمدينة من مدننا وقد كان فى حديقته شوارع تجرى فيها العربات وهى مزدحمة بالناس مثل ازدحام مدينة لوندرا . وبين باب المدينة وباب البناء الداخلى صفوف من أعمدة المرمر لم تر عيني شبيهاً لها . وكان القصر مزداناً بمناسبة قدومنا . وفى الشوارع التى فى الحديقة جنود مصطفة تصدح بموسيقاها .

استقبلنا فى هـذا القصر أناس بالنيابة عن الحكومة ودخلنا غرفة فيها أربعة وعشرون رجلاً على مقاعد مذهبة ، وقيل لنا أن هؤلاء هم أعضاء الشركة التى تحكم الهند ، ووجدنا مقعد رئيسهم أعلى من سائر المقاعد . وحياه السفير وقدم إليه الهدايا

وكانت أولى الهدايا ديوان شعر الشاه . فلما سلمه السفير التفتت كل العيون ، ولكن سرعان ما سمعنا الأعضاء يتهامسون : ليس هذا إلا كتاباً

وكنا ننتظر أن يضع الرئيس الكتاب على رأسه ويقبله ، كما نفعل نحن فى مثل هذه الحالة . ولكنه أخذه فى صمت ثم أحنى رأسه ثلاث مرات . وانتقل الكتاب من يد إلى يد حتى رأوه جميعاً

وقد امتعض السفير من ذلك وقلنا في أنفسنا بقران الشاه كان يعلم أن كتابه سيقابل هذه المقابلة لما ألف بيتاً واحداً من الشعر

ثم كانت الهدية الثانية هى صورة الشاه وقد رأى السفير أن الواجب يقضى بالسجود أمام هذه الصورة كما لو كان الشاه نفسه موجوداً فسجد وسجدنا جميعاً وكنا ننتظر أن يحذو أعضاء الشركة حذونا ولكنهم لم يتحركوا وأخذوا ينظرون إلينا نظرة استغراب

ولما تم تقديم الهدايا أخذنا بعض أعضاء الشركة إلى الغرف الأخرى ومنها مكتبة عامة فيها أحسن الكتب التى وضعت باللغة الهندية وتاريخ الهند باللغات المختلفة . وفى هذه المكتبة سيدات مختلفات ورجال وبينهم زوجة المستر هوج وبناته ؛ وقد أردت فى بادئ الأمر أن أختفى وراء واحد من أصحابى حتى لا يرينى ولا يسلمن علىّ فيستثرن غيرة السفير ضدى ، ولكنى وجدت هذه الطريقة غير مجدية ، وجاءت الأم فصافحتنى . ولحسن الحظ لم يرنا السفير عند ذلك ولكن سائر زملائى دهشوا

وقد طلبت إلىّ هذه السيدة أن أعرفها بالسفير الآن . فاعتذرت فى كلمات مقتضبة بأن هذا لا يتفق مع عوائدنا فأظهرت الاقتناع وتركتنى مؤقتاً

وكان يدير هذه المكتبة رجل هرم قالوا إنه عالم كبير . وقد فهمت أن الكتب التى فيها تقدر بمئات الآلاف من الجنيهات ، وفيها قسم للآثار به سيوف ودروع وثياب ونفائس مما جمعه الانكليز فى حروبهم مع ملوك الهند القدماء ، وفيها سيف لقائد تركى بحرى يقال له قبودان باشا . وقلت للمستر هوج : « ماشاء الله ! إذا كان شركتكم قد تغلبت على كل هذا المدد من ملوك الهند فهى ليست شركة إذن ولكنها حكومة من أقوى الحكومات

وجدت بين الرجال شاباً ذا شارب قصير ينظر إلى حبيبتى بيسى نظرات تكاد تقضى على كل آمالى فى الزواج منها والحصول على الثروة من مهرها ، وبدأت أشك فى أن لحيتى على كثرة ما فيها من

الشعرات الطويلة وسوالفى الممتدة كالغدير أفضل لدى الفتاة من ذلك الشارب المقصوص

ورأيت فى حذائى ذلك الشاب مهمازين من النحاس ولكنه لا يرتدى ثوب ضابط عسكرى فأيقنت أن المهماز وسيلة لاستجلاب هواها

وطفنا بسائر الغرف والأقسام فى هذا البناء المتعدد الأجزاء . ولما آن أوان انصرافنا دنت منى بيسى وقالت لى : لا تنس أن تتعشى عندنا غداً يا سمو الأمير

فسمع السفير هذا اللقب وقال لى ونحن فى الطريق : كيف تدعوك تلك الفتاة أميراً ؟

قلت : « لا علم لى ولكن يظهر أن كلمة ميرزا لا تفهم عندهم إلا بمعنى الامارة

الفصل السادس والثلاثون

أنباء من فارس

لما وصلنا إلى دار السفارة اجتمعنا حول السفير كالعادة فى الديوان وأخذنا نتحدث عما رأيناه فقال لى : « ما الذى رأيته اليوم ياحاجى بابا ؟ إنها اشركة عجيبة حقاً فهى كرأيك فيها حكومة من أقوى الحكومات ، وأرى واجبنا يقضى بأن نكتب إلى الشاه عن كل ما علمناه من أمر تلك الحكومة

قلت : « على العين والرأس ياسعادة السفير ، ولكننى لست أكتمك أن رجلا واحداً من رجالنا أعقل من هؤلاء الأربعة والعشرين مجتمعين إن كانوا كلهم مثل ذلك الرجل السمين الذى تعرفت عليه من وقت قريب . فقال السفير : « ربما كان هذا الوصف منطبقاً على من عرفته أنت منهم ، أما الذين عرفتهم أنا فجديرون بالسيادة على العالم كله لا على الهند فقط ، وهم يعرفون عدد الشعرات فى لحية الشاه وإن كان كلانا لا يعرف هذا العدد . وألقوا علىّ من الأسئلة ماعجزت عن الإجابة عنه . ولست أعرف كيف حصلوا على كل مالديهم من المعلومات »

قلت : « أما الذين عرفتهم أنا فقد ألقوا علىّ من الأسئلة ما يخجل حمار الصحراء من إلقائه . وقد سألنى أحدهم : ألسنا نعبد البقر ؟ ولما استنكرت سؤاله سألنى : أليس الفارسيون هم الفرسيس فى الهند ؟ وقال لى رجل آخر : إن بطلنا الفارسى « تاحماس كولى خان » كان رجلا إرلندياً وحقيقة اسمه « توماس كاليجان » وإنه هو المعروف فى التاريخ باسم « نادرشاه »

فقال السفير : « لقد يكون فيهم جهلاء ولكن أمين المكتبة الذى رأيته اليوم لا نظير له بين علماء فارس . وقد قرأ من الكتب مالم تحو مثله مكتبة الشاه . وأخبرنى المترجم بأنه يعرف عشر لغات أجنبية

وقال محمد بك : « ولكن علماء بلادنا أكثر اطلاعاً منه ومعرفة . فهذا الميرزا الانكليزى لا يعرف شيئاً على الاطلاق فى علوم الحديث والفقه والأصول والفلك ؛ ولم أسمع عن انكليزى واحد يستطيع استخراج الطالع من رصد النجوم

فنظر إليه السفير نظرة طويلة وقال : « ما الذى يهم هذا العالم من علوم الحديث والفقه والأصول ما دام كافراً ؟ لكنه يعرف مقابل تلك العلوم مايتعلق بدينه . وهل من علماء إيران رجل واحد يستطيع أن يتكلم بعشر لغات أجنبية ؟ »

قال محمد بك : « وهل عرفت ياسعادة السفير انكليزياً واحداً يحفظ أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام ويميز بين الصحيح منها والضعيف مثل الحاج محمد مجتهد مدينة قم ؟ »

فاحتد السفير وقال : « ألم أقل لك أيها الأحمق إن الانكليز مسيحيون وإن لهم ديناً غير ديننا يعرفون أحاديثه وأسانيده ؟

فهز محمد بك كتفيه واستمر السفير يقول : « هل علمت أن المجتهدين فى فارس يخرجون من بلادهم ليقنعوا أبناء الديانات الأخرى باعتناق الدين الاسلامي كما يفعل المبشرون الانكليز الذين يطبعون كتبهم ويوزعونها على الناس بغير مقابل ويحرصون على تلقين الناس إياها ؟ هل تعلم أن الانكليز ترجموا القرآن إلى لغتهم وعرفوا من علوم المجتهدين ما ليس يعرفه المجتهدون أنفسهم ؟ »

فتدخلت فى الحديث وقلت : على كل حال فهذه أمة نالت مكانة مدهشة من الثروة والقوة والمعرفة

فضحك السفير وقال : « هل تعني حكومة الانكليز أم حكومة شركة الهند الشرقية ؟ » فقلت « أقسم برأسك يا سعادة السفير أن شركة الهند تدعو إلى الحيرة أكثر مما تدعو إليها الحكومة الانكليزية نفسها »

قال السفير : « نعم لقد صدقت يا حاجى بابا فانى لا أعرف كيف تمكن الأربعة والعشرون انكليزياً من إخضاع الهند الواسعة ! ولا أعرف كيف صارت مدينة أجرا أو مدينة دلهى العظيمتان خاضعتين للبناء الذى كنا فيه اليوم . ولست أعرف كيف زال ملك المغول أمام بناء الشركة فى شارع « ليدن هول ستريت »

فقلت : « هذا مدهش حقاً يا سعادة السفير وأرى أن نكتب للشاه أن يأمر بتحصين البلاد وتقوية الحدود لأنه من يدرى ربما قامت شركة أخرى بفتح فارس كما فتحوا الهند بواسطة شركة تجارية !

ولم أكد أتم جملتى حتى جاء رسول من قبل وزارة الخارجية يحمل إلينا خطابات من قبل الشاه الفارسى ، فتسلم سفيرنا الرسائل وسكتنا منتظرين اطلاعنا على ما فيها

ولما فتح السفير إحدى الرسائل صاح : « الحمد لله ! الحمدلله ! لقد مات عدونا اللدود « ميرزا شافى » رئيس الوزارة الفارسية »

ثم قام السفير إلى ركن من الغرفة وسجد لله سجدتى الشكر

واضطررت مراعاة له أن نقول : الحمدلله ! الحمد لله ! مع أنى كنت فى حاجة للبكاء فى تلك الساعة لأنى كنت مستظلاً بحمايته ، ولأن معاملة السفير لى ستتغير طبعاً بعد الآن

ولما فرغ السفير من صلاته أطلق لنفسه العنان فى إظهار الفرح وظل طول اليوم لا يفكر فى أمر آخر وهو بين لحظة ولحظة يقول : لقد مات ميرزا شافى !

وكنت أفكر فى مستقبلى بعد تلك النكبة فأتحسر . ولقد دلت التجربة على أن معاملة السفير لى تغيرت تغيراً كلياً بعد وفاة رئيس الوزارة . فقد كان من قبل يعاملنى بشىء من الاحترام . أما الآن فانه يهزأ بى . ولقد قال لى مرة : « إن أباك قد مات . لقد مات هذا الكلب القذر ! ولكن لحسن حظك كنت موجوداً معنا فى هذا الحين . فان الشاه صادر أملاكه وباع عبيده وجواريه ؛ ولو كنت هناك لباعك أيضاً » فقلت له « أرجو ألا يحرمنى الله نعمة رضاك »

قال لى : « إذهب وكن مطمئناً فقد عفونا عن الماضى ولسنا نحمل لحانا ذات لونين »

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى ٧